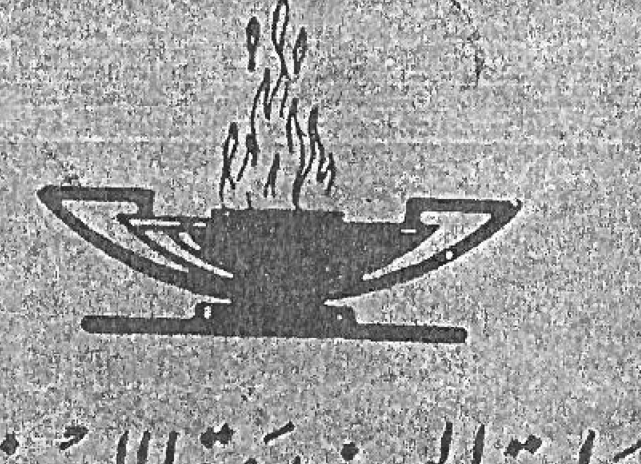
ميشال شيحا

لبنان

في شخصيته وحضوره

نقله الى العربية

فؤاد كنعان



منشورات الندوة اللبنانية
بيروت
١٩٦٢



فهرس

صفحة

الى فخامة الرئيس اللواء فؤاد شهاب
ترفع الندوة اللبنانية هذا المؤلّف

يقيناً منها ان لبنان ، في شخصيته وحضوره ، وفي ما ارتجاه له ميشال شيحا في محاضراته هذه، انما هو الماثل في قلب رئيسنا الكبير وعلى راحتيه، فكراً وقولاً وعملاً، تصميماً وتخطيطاً ومنجزات إعمار ، وهو الذي كان محور لقاء بين الرجلين ، وهو الذي وثّق بينهما أواصر مودّة وحرمة توافقت في الرؤية المثلى لهذا الوطن ، لتاريخه ، لشعبه ، لرسالة شعبه.

إن ما أوتيه ميشال شيحا ، في صفحاته هذه وفي سواها ، من رهافة الاستشفاف وصدق التفكير وصفاء الايمان ، إن هو إلا حصيلة معايشة عميقة للبنان في أحقّ خصائصه ،معايشة كنّزتها خبرة الحياة والكتاب ، فتجلت رؤىً لهذا الوطن ومقوّمات ، يوم كان هذا الوطن في حيرة من وضعه. فكأن رؤاه يوم بثّها، كتابةً وقولاً، بثّها لتُقرأ وتفعل ، أمسِ واليوم وغداً وبعد غد ، وتعمّ كلّ من يعنى بمصير لبنان ، وتعمّ أخوةً له وجارات ، وسائرَ العالم.

وهذا ما حدانا على نقلها من الفرنسية الى العربية ، على يـد اديب لبناني مرهف ، وما خوّلنا أن نرفعها الى اللبناني الأول الذي اقام منه توقّد ايمانه بالحقيقة اللبنانية حارساً لها ، يكلأها بمزيد المحبة والحرص ، فاذا عهده وقفٌ على تعزيز هذه الحقيقة واستنهاض مقوّماتها وترسيخها على أسسٍ من الحرية والانفتاح والإعمار والعدالة والإشراق ، وعلى أسسٍ من التعاون الأخويّ المخلص مع الشقيقات العربيات لما فيه خيرها وخير لبنان .

فالندوة اللبنانية، ايماناً منها بلبنان يحدّد معالمه مفكر لبناني كبير ، ويوطّد أسسه رئيس للبنان كبير ، هو فخامتكم ، إيماناً منها بالديمومة اللبنانية تطّرد برعايتكم وتتألق ، ترفع اليكم هذا الكتاب ، مشفوعاً بآي القدر والوفاء .

ميشال اسمر
مؤسس الندوة

لبنان اليوم
(١٩٤٢)

لبنان اليوم ، هـذا الشيخ الذي جاوزت سنّه الخمسة آلاف ، بات لا يعجب حينما يقال عنه انه في ريعان شبابه . فلقد والف ذلك . من هنا يبرر اسمه الآخر فينيقيا ، اذا صحّ ان هذا هو بالذات اسم الفينيكس الاسطوري ، الناري الريش ، الذي ما كان ليحترق حيناً ويموت حتى ينبعث من رماده . وعلى اللبنانيين اكثر ممّا على التبيبيّين المتحدرين من قدموس الفينيقي ليصدقنّ ذاك المطلع المهيب من مأساة «أوديب الملك» لسوفوكل:
« ابناء قدموس الشيخ ، يا ذرّية فتيّة ...»

لهذا اللبنان ، وليد الأمس ، على حد ما يحكى ، لهذا الذي طوى اجيالاً تلو اجيال ، يمكن بالكاد التماس سن الرشد ، على ما يبدو . فيا لسخرية القدر .

في نهاية مطاف(*) متفاوت المراحل، ضاق به الوقت فخلّى دونما ارتياد حقباً لبنانية تسترعي الخاطر ، ماذا ترانا فاعلين هذا المساء ؟ سنمضي في محاولة جمع وتأليف ، سنجهد في تحقّق ما نحن ، في سبيل استجلائه ، بما كنّاه دون ريب ، وبطبيعة

(*) هذه المحاضرة جاءت ختاماً لسلسلة محاضرات نظمها نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت عام ١٩٤٢ ، وتناولت « لبنان على مرّ التاريخ ».

الاشياء على الأخص . فاذا ما أفلح جهدنا هـذا أبانَ لنا ، من خلال حِدْثان تاريخ فريد في حـدثانه ، شروط استقرار نسبي لبلادنا .

ان ما أوتيناه من وضع جغرافي تتناوبه المحاسد والمخاطر (بحسب وجهة النظر) لا يسنح لنا أن نأمـل بأفضل من هذا الاستقرار . استقرار مناط وجوده ، الى ذلك ، بما لنا من صلابة نفس وارادة ، وفعالية ذكاء . لقد عشنا ، ومحتوم علينا ان نعيش في الخطر . فينبغي دوماً ان نحتبس السيل من أنـّى أتى ، أو نقنـّي له ، اذا نحن أبينا ان يجرفنا السيل .

اكثر فاكثر نرانا قيّمين على شبكة دروب لا ندحة عنهـا . دروب سألـَنا الأقوى منا، وسوف يسألوننا اجتيازها، في الآونة الحرجـة كما في ايام السلم . فاذا نحن افسحنا في المرور تعرضنـا للتفرقة (اذا العدو هو الذي يمرّ)، واذا نحن حجبنا الممرّ كان علينا ارتقاب العدو يقحمه عنوة (ان لم يكن الممرّ في حميـة سوانا). ان احداث الحرب الحالية، بعد احداث حرب ١٩١٤–١٩١٨، في الشرق الاوسط، إن هي الاّ مثال جديد على مغامرتنا ابداً. ناهيك بما يجاورنا من نيّات مبيتة ومطامع قد نكون هدفاً لها .

ونحن بحكم موقعنا، ولأن ما من دولة كبرى تقدر ان لا تبالي كلياً بنا (لوقوعنا في مكان وعلى طريق يتـّسمان بالميسم العالمي)، ولأننا بالتالي بلاد جبال ما زالت تتيح التحصن والدفاع ، ولأننا

اخيراً ننعم بمناخات مؤاتية ، ومطلّ رحيب على عرض اليمّ ، لكل ذا أصبحنا — وليس بدون غرابة بفعل ما نتعرّض له من محاذير — ارضاً ملاذاً للمضطهدين والمبعدين ، بكل مـا يستتبعه امتياز كهذا من عواقب واعباء . وبما ان بلادنا صغيرة أرضها ، وبما ان جبالنا هيهات ان تأوي وأن تقيت ملايين الناس، فبلادنا هذه ما غصّت مرة بأهليها حتى تلفـّت أهلوها الى الهجر .

طبعاً ليس جيراننا، خلف التخوم، هم المحتاجين الى الاراضي (فكثافتهم السكـّانية زهيدة) بـل نحن المحتاجون. وليس في هذا كل البدعة. فلئن كان الفينيقيون قد أسهموا منذ ثلاثة آلاف عام في إعمار قبرص وكيليكيا والأرخبيل حتى بلاد الاغريق ؛ ولئن كانوا في أوجهم، بين القرن العاشر والسادس قبل تاريخنا ، قد شـيّدوا أوتيكا وقادش وقرطاجة؛ ولئن كانوا قد يمّموا معظم نواحي العالم المعروف والمغمور آنذاك، فللأسباب نفسها، الى حدّ ما، التي حملت اللبنانيين على انتجاع مصر اولاً، منذ حوالي مئة عام، فانتجاع أربعة اقطار المعمور .

وحريّ بنا ، في ما يـلي من تبسـّطات ، ان نتجنـّب روح القياس الزميت، وألاّ يفوتنا ان حيال النظرية المجرّدة لا بدّ ان تنبري الحقيقة الحيّة بما لها من أطوار وتحولات .

***

لبنان اليوم ما هو تقريباً ، في ما عنى أرضه ، سوى لبنان الفينيقي في الأصل . لكنما ينبغي ، حتى نلقى من جديد فينيقيا

الأمس بتمام حدودها ، ان تماشي الساحل المتوسطي من الجنوب الى الشمال ، ذهاباً من جبل الكرمل وعكا الى رودس القديمة ، وهي جزيرة ارواد ، فـإلى انطرادوس ، وهي طرطوس . ان ارواد ، تلك القلعة الفينيقية الشمالية ، كانت نداً لصور التي في الجنوب . ومن بعد طرطوس ، تطلعاً للشمال ، يغدو جائزاً لنا ان نعود بالذكرى الى وشائج قربى بيننا وبين اللاذقية التي كانت «لاوديقة لبنان» ، وبين ما يستدير بها من منظور .

اما الجبل اللبناني ، وهو الذي يترامى في موازاة البحر ومنتظم الحاضرات البحرية ، مكسواً بالأشجار في شماله اكثر منه في الجنوب، لأن شماله أصعب منالاً (في ايامنا كما في الأمس)، امّا هذا الجبل فهو اليوم منّا سلسلة الفقار، في الحقيقة وفي المجاز. كان في معظمه ارضاً خلواً تضرب فيه طائفة من الضواري، يوم كانت جبيل وصور ترفلان في مطارف الأبهة والعزّ. وكان استثمار غاباته خاضعاً، كما في عهد روما بعد ذاك ، لما هو أشبه بالرسوم الأميرية، بحيث كان لمشاغل السفن ومجهّزيها على الشاطىء وكأنه مدّخر ممتنع النفاد. لكن اشجار الأمس ما أقلّ ما تبقّى منها على الجبل الذي طالما جرّدوه من اشجاره. فبعد اختفاء الضواري انضم المعّاز الى الحطّاب ليجهزا معاً على صغار النبت . هكذا تكتب آداب الرعاة .

وامّا البقاع، وهو ينبسط كذلك بموازاة الجبل والبحر، بين لبنان ومشارقه، فإنه اليوم اهراؤنا البرّة. وقديماً اكسبه رحيب

امتداده الى الشمال اسم سيليسوريا ، أو سوريا المجوّفة . بيد انه في العهد الروماني سمّي فينيقيا لبنان . ولسنا نحن من ينكرون على هذه التسمية شرعيتها ، وهي على ما هي عليـه من وفاق لطبيعة الأمور. في ذلك الزمـان كانت هياكل بعلبك في إبّان مجدها . وكانت الفرقـة الثالثة « غاليكا » ، المعسكرة في فينيقيا منذ قرنين على الأقل ، تتنقّل ذهاباً ايابا بين الساحل والسهل ، بين بيريت وبعلبك .

* * *

شيئاً زهيداً يبدو لبناننا على الخارطة . فمن الطرف الشرقي للمتوسط ، حيث هو ؛ ومن فوق تونس ، أي قرطاجه ، تراه يتطلع جبل طارق في الطرف الآخر . ولئن لم يعمد الفينيقيون يوماً الى مماشاة الشطّ مساحلين ، بل ذهبوا من صور نحو الغرب في خط سويّ ، بحثاً عن رأس بحريّ ينزلونـه ، وتركوا « كريت » عن يمينهم بعد ما تلبّثوا بها ، فلكي يصلوا بالضبط الى حيث شيدوا مستعمرتهم الكبرى على الارض الافريقية ، مـا وراء البحر . على هذه الطريق قامت مالطه وغوزّو وبنتليريا . وكلها كانت لهم كما نعلم .

ولنلاحظ ، ونحن نتصفح وضع لبنان الجغرافي ووقوعنا في ملتقى قارات ثلاث ، اننا بفضل ذلك رأس جسر ولا أميز ، بل قل اننا للعالم أحد مراصده .

واليكم ما تأتّى لكونتنو أن يكتب عن فينيقيا الأمس :

« تبدو فينيقيا وكأنها معبر ضيّق بين افريقيا وآسيا ، لأن ما بعد لبنان تترامى الصحراء السورية الكبرى ، العسيرة المجاز . لكنها في الجنوب ، من جهة فلسطين ، تتصل بشبه جزيرة سيناء وبمصر ، كما تتصل شمالاً بواديَي دجلة والفرات . فهل يكون في وسع فينيقيا ، والحالة هذه ، أن تلبث بمعزل عن منازعات العالم القديم . كان عليها ان تعانيها أو تسهم بها . امّا امتلاك فينيقيا ، وفيه كل الضرورة لسلطنة كبرى ، بحكم ما تحفل به من موارد ، فكان ايضاً ذا نفع ستراتيجي . إنها لمن يحرزها باب مشرع إمّا على افريقيا وإما على آسيا . بل انها «عتبة» له ، هي على السواء سور ومنطلق لغزوة مقبلة . »

فلكي نضع هذا التحديد موضع التطبيق على الحاضر ، ترانا ماذا نبدّل فيه ؟ لا شيء على ما يبدو ، لو لم تكن الصحراء قد جيزت بشتى الأسباب ، والطريق قد تعدّدت ، وباتت ألزم لزوماً واكثر رحابة ، لا تني تنتظر اكثر وسائل النقل تكاملاً ، لتأمين مصلحة امبراطورية .

في مروحة من ثلاثة فروع ، هي افريقيا وآسيا وأوروبا ، ما أشبهنا بمركز المحور . اننا نحتل ما قد يسمّى الموقع-المفتاح . وطريق الهند ، بريّة كانت أو جوية ، تمرّ وستمر أكثر فأكثر بين ظهرانينا . (فالرودة الصفراء ، وهي لم تبرحنا ذكراها ، اتخذت بيروت نقطة انطلاق أسيوية لبلوغ بكين في الصين . انها بالفعل أقصر طريق) .

وليكن لنا ، بصدد هذا ، أن نستعيد مقطعاً من محاضرة

قيلت منذ ثلاث عشرة سنة في هذه القاعة بالذات(*) : « ثمة دروب عالمية لا بدّ للمرء ان يستهدي معالمها اذا هو شاء ان يعرف من اين يأتي والى اين يروح . دروب الماضي ودروب الغد ، وما لكلتيهما من منافذ ومفترقات . نحن هنا إمّا في نهاية احدى هذه الدروب وإما في بدايتها . ولبلوغ البحر الأبيض المتوسط ، قلب العالم القديم ، يتعذّر على آسيا الجنوبية كلها ، يتعذّر على حوالي مئات سبعٍ من ملايين الناس ان يمرّوا إلا من عندنا ، بانحراف قليل نحو الشمال أو نحو الجنوب ، سيّان . لكنّ هذه الآسيا المتعجّجة ، الذاهبة من الخليج الفارسي الى بحر اليابان ، يوم تعتمد اكثر فأكثر على سكّة الحديد ، أو على السيارة ، او على الطائرة ، ويوم تزمع أوروبا ان تتصل بها ، بطريق بري او جوي ، يومئذ تسلك كلتاهما هذا الطريق » .

الى هذه الجادّة وجب ان نضيف طريقاً آخر يقطعها : طريق « الشرق-السريع » القادم من الشمال . ذلك ريثما تبطل سكة الحديد فتخلّي المجال لوسائل المستقبل .

تلكم هي وضعيتنا على كرة الارض . علماً بأننا بين الثلاثين والأربعين من درجات العرض شمالاً ؛ واننا ، وقد أعطينا جبلاً على مختلف الارتفاعات المأهولة وبحراً على مدى رحيب ، أعطينا بفضلها مناخات تجمع بين الليان والتنويع وتوائم الانسان وشتى الزراعات . ان لوجه لبنان قسمات اوروبا الجنوبية ، بل له قسماتها الأكثر تميزاً ، فكأنه الى حد بعيد وجه الجزر المتوسطية

(*) ميشال شيحا : « مشكلات ومزاعم من عندنا » .

الكبرى . وهو على نقيض ، عنيف احياناً ، لما تبديه الواحة والبوار والصحراء من سيماء ، على قرب ما بينه وبينها من جوار . وللبنان من بعض النواحي نوع من الدعوة الجزيرية التي يتأبّاها علم الأرض. فلقد رأينا جيولوجيين يخطئون بصدد هذا، وليس من زمان بعيد . ورأيناهم يذهبون الى تفسير ما نحن ، متوسّلين بأعماق الارض بدلاً من مشارفها .

* * *

يتناهى لبنان اليوم على مساحة تداني العشرة آلاف وخمسمئة كيلومتر مربّع ، اي ما يوازي ربع سويسرا . فعلى هذه البقعة الضّيقة، المتعادية، يعيش اكثر من مليون نسمة بقليل، أي ربع سكان سويسرا . بحيث ان كثافة السكان هي في لبنان ما هي عليه في سويسرا: حوالي مئة نسمة في الكيلو متر المربّع. لكننا نحن هنا أقل حِظة منهم في سويسرا ، على الرغم من اننا مثلها بلد جبلي . لأن عندنا معدلاً وسطياً أقل منها مدعاة الى الرضى، ولأن مساحات شاسعة من أراضينا ، في الشرق وفي الشمال الشرقي ، ما لبثت قاحلة وتكاد تكون حتى اليوم خلواً من الساكنين .

اما وقد ساقنا الكلام الى اقتياس ما نحن فيه على الصعيد السكّاني ، فعلينا ان نتريّث هنا ، وان نسائل النفس : من هم الاحياء الذين يؤلفون اليوم شعبنا ؟ وجب قبل كل شيء ان نعلم ذلك، اذا نحن اردنا ان نعلم من نحن، اذا نحن اردنا استبانة وجه هذه البلاد، للكلام بالتالي على المجانسات وأوجه الشبه . ما هي

وراثات لبنان اليوم، تلك الوراثات العميقة التي يمكنها ان تعزّز حق المواطنية بالحق الدموي ؟ .. لعمري ليس ذلك بالجواب اليسير .

بيد اننا لن نألو جهداً في سبيل ذلك ، وبشيء من الايجاز طبعاً ، لأن ما أُعطيناه من وقت يحول دون المضيّ بعيداً في تحقيق كهذا التحقيق . بعد ذا وحسب يمسي في مكنتنا ، بغية تحديد من نحن، ان ننتقل سريعاً من أصولنا، ومن تاريخنا ، الى السمات الطائفية التي نوسم بها، ومنها الى عاداتنا فشرائعنا ، فالى لبنان اليوم في حياته القومية والدولية . « ان الماضي لا يندثر ابداً بتمامه بالنسبة للانسان » . هذا ما كتبه فوستل ده كولنج في مقدمته « للحاضرة القديمة » . « فالانسان قد يسلو الماضي ، لكنه يختزنه دوماً في قراره. لأن الانسان ، مثلما هو ذاته في كل آن، كذلك هو حصيلة الآونة الغابرة وخلاصتها.»

على الشعب اللبناني بمجمله، وبقطع النظر عن كل فرد ، ان يرتضي له تحدّراً يعود الى ابعد بكثير مما يشاء بعضهم الأخذ به، تبريراً لسياسة معيّنة. هذا يبدو لا مرية فيه . وهو على كل حال موضوع يفرض الحكمة على الحكم. فذلك الفتح أو ذاك يعانى بين فتوحات جمّة سواه، لم يكن من شأنه تحويل شعب بأسره جيلاً الى جيل، ولا الفيّاً الى الفيّ. ان البشر الذين كانوا يعيشون على شطآننا منذ خمسين قرناً، أو أربعين، او ثلاثين ، أو عشرين ، والذين ننبش من مطاوي الاحقاب حضاراتهم ولغتهم ، دون ما يفي من احترام ، ان هؤلاء البشر ، مهما أبادت الحروب منهم ،

منذ تلك الأزمنة البعاد، ومهما تكاثرت منهم واليهم النزوحات، ليتوسمون بلا ريب في لبنانيّي اليوم ذريتهم العريقة . لم يكن لدمهم ان يتلاشى كلياً . فالعقل يأبى تسليماً بذلك، حتى ولو لم يكن من سند له الا" المحتملات . أكيد ان العالِم بخصائص الشعوب، اذ يعنى باللبنانيين يكون عليه ان يجهد كثيراً. فهناك مثلاً من يزعمون اننا شعب محض ساميّ" . أصحيح هذا حقاً ؟ أليس من الاجتراء ان يقال عنا حصراً اننا ساميون ؟ في وسعنا ان نعتمد على مطارحات شهيرة في هذا الموضوع ، لكننا نقتصر على ايراد بعض النصوص ، الحديثة قدر المستطاع ، على ان نعود فنكمل طوافنا عبر التاريخ، لعلّما يكون لمعقّد حالنا استجلاء.

« تكشف لنا حقبة ما قبل التاريخ عن وجود عدد كثيف من السكان المتأصلين ، على الساحل . ولا يبدو على هؤلاء انهم ساميون». (كونتنو) . أضف « ان علم طبائع البشر ، كما يُتوقع منه ، لا يعطينا الخبر اليقين عن وجود عنصر بشري مستطيل الرأس، دون سواه، في الحقبة التاريخية الفينيقية، كما لو كان شأننا مع ساميين محض . فلقد باتت العناصر في مزيد اختلاط » . (كونتنو) .

« يدلّنا أول واقع تاريخي على تغلّل النفوذ المصري في بيبلوس . وهو نفوذ سوف يعمق أثره في البلاد كلها ، خلال الألف الثاني » . (كونتنو) .

«... معلومات شتى تتناثر جغرافياً هنا وهناك ، تقود الى

تبيان حالة من التجانس السامي ، يتبدّى في الالف الثالث على المجمل الفينيقي الفلسطيني حتى أقصى الجنوب . وهذا التجانس هو اكثر توثقاً ، في الاتجاه المعاكس ، نحو الشمال ... » (ريمون ويل : « فينيقيا وآسيا الغربية » ، صفحة ٢٥) .

« وتجتاح الغزوة الهندو-أوروبية آسيا الصغرى وأرمينيا (متدفقة من الشمال اعتباراً من ٢٠٠٠ سنة قبل تاريخنا على وجه التقريب) مفضية بامتزاجها بالسكان البدائيين ، من آسيانيين غير ساميين ، الى تلك الشعوب التي ستنتزع لها مكانة كبرى في تاريخ الألف الثاني ، وأهمها تلك التي من السبط الحثّي. وهناك جحافل غزو أُخر تجتاح أواسط الفرات وسوريا الوسطى ، ومنها جرياً الى الجنوب تبلغ فلسطين ».

«في سوريا-فلسطين هذه ، خلال ألفها الثاني ، سنلقى عنصراً من السكان جديداً شأنه عظيم ، تأتّى من التدفقات الهندو-أوروبية » . (ويل صفحة ٨٠) .

« فالهندو-اوروبيون ، وقد أقبلوا من الشمال ، من منطقة شاسعة ، باردة، بدائية الحضارة ، كانوا في إبان وصولهم فلاحين رحّلا بالأخص . (ولنضف بين هلالين : انهم دخّلوا الحصان على العالم الشرقي ، اذ كان قبل قدومهم مجهولاً) » . (ويل ، صفحة ٩٣) .

« ونستشفّ من الحثيّين الاسيانيّين الذين سبقوا الهندو-اوروبيين ، انه في زمن سحيق قامت حركة مبادلات وانتقال

واختلاط سكان ، بين سوريا ـ فلسطين وآسيا الصغرى ... فطبيعي جداً ان تكون الهجرات والتوطّنات قد تمّت بمثل هذه السهولة ، اعتباراً من مستهل الحقبة الهندو ـ اوروبية بعد الالفين . امّا وجود عنصر هندو ـ أوروبي له شأنه في سوريا ـ فلسطين فهذا ما هو جليّ تماماً ، بحسب ما سنلقاه في مصر ، عن هذه البلاد ، من مستندات جزيلة الاهمية ، ترقى الى الحقبة الفرعونية الأولى ، في القرنين الخامس عشر والرابع عشر » . (ويل ، صفحة ٩٤) .

وهكذا يبدو ان الأمر المحقق الوحيد ، على الصعيد الإتنيّ ، بالنسبة الى المناطق التي تعنينا ، انما هو الاختلاط واللبس ، رجوعاً مما قبل التاريخ حتى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل تاريخنا ، حتى الواح تل العمارنه. وما هذا الجسر الذي يصل بين شرقي الأبيض المتوسط والخليج الفارسي سوى بوتقة تنصهر فيها الأعراق البشرية والأجناس . ففيما هؤلاء يمضون صعداً وفيما اولئك ينحدرون، يتلاقى اناسي هذا الماضي السحيق ويتآلفون، طوعاً او قسراً ، على الأرض التي بعضها البحريّ الأوسط هو اليوم وطننا .

ولئن غدا الوضع الاتنيّ اكثر وضوحاً واجتلاءً ، منذ القرن الرابع عشر قبل تاريخنا ، فإنه الى ذلك لم يقلّ ارتباكاً عن ذي قبل . وقبلما أخصّه بالكلام ، أود ان اتوقف على صفحة بليغة للأب لامنس عن الغزوات الكبرى التي استهدفت بعض المشرق الحالي ، من ايام تلّ العمارنه حتى فتح الاسكندر . كتب ما

نصّه : « فيما كان سكان الدول السورية الصغرى يحيون حياة قبلية ، منعزلين في ديارهم المجزّأة ، قابعين في مطاوي جبالهم وبين فجوات انهارهم الجارفة ، تكتنفهم غابات الأرز الدهرية ، كانوا يهتلكون في صراعات أهلية : شمال على جنوب ، جبليون ضد سهليين ، سوريون قاريّون يتلمسون لهم منفذاً الى البحر على حساب مشاطئي الأبيض المتوسط ، على حساب الجمهوريات الفينيقية . وفي غمرة هذه الحروب الأهلية أهملوا جميعاً رقابة المعابر ، من مضايق طوروس الى مقاطع الفرات ، تاركين ابواب الصحراء مشرعة على مداها . فشهدوا غزوة العبرانيين، وشهدوا نزول القبائل الاناضولية باتجاه الجنوب، وشهدوا هبوط القراصنة الإجيّين على الساحل . شهدوا منذ الفلسطينيين ، وقد جاؤوا على الأرجح من كريت ، عرضاً سلسلاً لغزاة الشرق والغرب من بابليين ومصريّين وحثيّين وأشوريين وفرس ومقدونيّين . ان فقدان الوحدة ، فقدان الحس القومي ، انما فلّ من عزمهم . امّا الفينيقيون ، وهم اكثر منهم مرونة ، فما كانوا ليستسلمون . ولم يخوضوا صراعاً مكشوفاً مع الأشوريين والفرس ، بل حملوا الغزاة على التعامل معهم وادائهم الأجر عن خدمات اسطولهم البحري . انهم يرتضون تلك المهمة الجزيلة الكسب ، مهمة الوسطاء بين آسيا والعالم المتوسطي » . (سوريا ، صفحة ٨) .

من هذا النص نستنتج أول ما نستنتج تمييزاً تاريخياً بين ما يسمّيه الأب لامنس بالجمهوريات الفينيقية، وبين ما يحوق بها ، لا من حيث التخوم وحسب، بل من حيث النهج السياسي .

كان لا بدّ من اشارة عابرة الى ذلك، لأن في ذلك الدلالةعلى تناقض المصالح، تبعاً لما يكون الشعب شعباً بحرياً أو من اقاصي الصحراء . وبقدر ما هنالـك من الوان للحياة الجماعية ، كأن يكون الشعب شعب تجّار بحارة او زرّاعين او رعاة رحّل ، بقدر ذلك تكون مفاهيم الحكم والحرية، وتكون لتنوّع العنصر البشري حظوظ ومحاذير .

ودالت الدولة المصرية بعد ذاك ، بعد أن دانت لها في فينيقيا سيادة طويلة. انها في ما يعنينا ختام وشيك لفصل من التاريخ حافل . ففي اعقاب صراع مديد يتوالى بين المصريين والحثيّين النازلين من الشمال ، على مدى عشرين عاماً واكثر ، وعلى نطاق مئة كيلو متر حول لبنان الحالي ، ثم يؤول الى سلم عييّ ، نرى المدن الفينيقية تدرج على مهل نحو حقبة من الاستقلال تمتدّ ثلاثة قرون، لكن تاريخها غامض. هنا تصحّ ملاحظة ماسبيرو : « ان لسوريا من وضعها ما لا يمكّنها من الاستقلال، الاّ اذا لم يجاورها جيران اشداء». ويكتب «ويل» بصدد ذا : « حالما تنقطع هذه الديار الى ذاتها (ويسميها البلاد الفينيقية ـ الفلسطينية) تحبس عن اسماعنا صوتها ، وعلى نفسها تنطوي امارات لها ومدائن » (انها المجادلات المعروفة حول المدينة الحرة والمدينة المستقلة استقلالاً اداريا) . وتنعم فينيقيا عهد ذاك بمطالع عظمتها الاستعمارية. نتخيّلها تاجرة وصنّيعة، لها اسطول تجاري ضخم ، وفيها شتات من السكان، كما هي حال المرافىء المتوسطية الكبرى في أيامنا هذه . بـل يمكن ان نتصورها يومذاك تغصّ نسبياً

بأهليها ، وتعاني الحاجة لأن تقيم لها الاسواق عبر البحار وفي البلدان المجاورة، لا لتصريف السلع وحسب بل لتوطين ابنائها . ولا يغيبن عن البال، هنا، ان « الفينيقيين كانوا يتعاطون التجارة مع الخارج ، برّاً وبحراً معاً ، متوسّلين بالقوافل والمراكب » . (ماسبيرو) .

وتعود حروب الفتح وكبرى الغزوات ، مع مستهلّ القرن التاسع قبل تاريخنا. وممّا أفضت اليه، من الناحية السكانية ، انها دفعت على التوالي ، بين الفرات والبحر الميت ، جيوشاً مظفرة لممالك جديدة غدت بدورها دولاً « عالمية ». انها حركة موصولة الحلقات، ضارية الزعازع ، تلقى ابداً لبنان الفينيقي وسوريا في وسط كل مغامرة. وهنا وهناك مدّ وجزر ، وطفاوات بشرية ، واعراق تتشابك وتمعن في التشابك .

ثم يسيطر الأشوريون على فينيقيا بعد سنة ٨٧٥ على وجه التقريب، فتمسي لهم اقطاعة، لما يناهز الثلاثة قرون. الاّ انها ، شأنها دوماً، وفّقت الى صيانة شخصيتها. ثم تنتقل السيادة الى شعوب آرية من ماديّين وفرس ، فاذا هم يسيطرون لأكثر من مئتين وخمسين عاماً آلت الى انتصار الاسكندر في إيسوس بكيليكيا ، وقد كانت قبلاً مستعمرة فينيقية . وتنهار الدولة الفارسية عام ٣٣٣ ، فيما تنفذ مع الاغارقة ـ المقدونيين حضارة لليونان ولغة. فما يتوارى الاسكندر حتى يهمّ قوّاده ، مجتمعين على مقربة من حمص، بأول تقسيم لمملكته. ثم تكرّ الاحداث ،

فاذا فينيقيا وسوريا في يد سلوقس،وقد أقام من انطاكية عاصمة له، واذا مصر في يد بطليموس .

ويقيّض لروما في تلك الاثناء ان تقوّض قرطاجـة ، وان تنال حظاً كبيراً من الشأو، فراحت تملي ارادتها على العالم. وينزل بمبيوس بجحافله على سوريا ، عام ٦٤ قبل المسيح ، فيوطد فيها اركان الامبراطورية الرومانية ، فتستقرّ هذه في بلادنا ، مع امبراطورية الشرق،سحابة سبعة قرون. يومها بزغت النصرانية، وجاءنا يسوع الناصري ميمّماً، فبلـغ تخوم صور وصيدا . ومن القرن السادس حتى السابع ينازع الاكاسرة بيزنطيا على سوريا نزاعاً مستميتاً ويذيقونهـا مرارة الغزو . ثم لا يلبث العرب ان يتغلبوا على هرقل في واقعة اليرموك بخمسة وعشرين الف مقاتل وحسب ، فاذا هم أول من يدهشهم ان تسلس لهم سيادة البلاد بهذا الثمن البخس .

ان ما اوجزناه من أحداث ، وما تمثله هذه الاحداث عـلى رقعتنا من هجرات وتنقلات، من اقبال وادبار ، ومن انقلابات اتنيّة، لهو حقاً مستبعد التصديق. ولن تكون التتمة ادنى منه استبعاداً . المهمّ ان لا تؤول بنا الثلاثة عشر قرناً — وهي مـا برحت قبلة انظارنا — الى اعتبار الاربعـين قرناً التي تقدمتها وكأنها باطلة المفعول . ولا نسهونّ أننا ، الساعة ، نعنى بلبنان اليوم. لكن لبنان اليوم ليس جبالاً وشطوطاً وحسب ، بل هو بشَر. هؤلاء البشر كان علينا ان نجلو معالمهم لنكتنه من الماضي كنه الحاضر وعبرة الغد .

وكان حتماً ، مـــع الاسلام الوليد ، ان تغدو الطائفية سمة الأفراد الرئيسة، بعد ما كانت هذه السمة قومية عهدَ البيزنطيين (إما ان يكون المرء من رعايا الامبراطورية وإمّا ان لا يكون) علماً بأن الاسلام السياسي متأتٍ من الاسلام الديني . فالخليفـة ليس بأمير السوريين، او العرب، او المصريين ، او الاندلسيين ، بل هو امير المؤمنين . ولعلّ ما نعزوه احياناً ، دون المزيد من التبصّر ، الى نوع من المقدور ، يلقى مصدره في واقع تاريخي ، بحيث باتت المسألة الإتنيّة تضاعفها مسألة طائفية وتتحكم بها ، وبات الاسلام السياسي يحصي تلقائيـاً مـا تحتضنه سلطته من مذاهب شتى ، فيخصّها بسلسلة من قوانين الاحوال الشخصية ، متنوّعة الاعباء والامتيازات .

بقي علينا الآن ان نمضي قدماً، كيما نلقي المرساة عند أيامنا. ها هم (في أقل من قرن ، من يصدق ؟) الأمويون في دمشق ، وبعدهم العباسيون في بغداد ، واخيراً الفاطميون في القاهرة . انهم دواليك سادة الشاطىء الفينيقي القـديم والجبـل ، حيث الاهلون يُحرَجون غير مرة الى التمرّد ، وغير مرة يتعرضون للمهانة والتشريد . ها هم المردة في لبنان ، عهد الامويين، يؤمونه من تخوم طوروس ، فما يطول أمرهم حتى يندمجوا بالموارنة ، بعد ما سبق لهؤلاء ان أنِسوا في الجبل اللبناني ملاذاً وكرّسوه لهم موطناً. ثم يطل الصليبيون في اواخر القرن الحادي عشر ، فاذا هم في الربوع التي هي اليوم لبنان .

فبيروت ، مثلاً، وقد احتلها الملك بودوان في اواسط ايار سنة ١١٠٠ ، لبثت بين ايدي الفرنجة حتى تموز سنة ١٢٩١، اي لأكثر من ١٨٠ عاماً. وعلى هذا المدى دامت الحقبة الفرنجية في مجملها. ولو اخذنا بعين الاعتبار انه منذ عام ١٩١٨ تقضّى بالكاد ربع قرن ، لتحققنا ماذا تمثل زمنياً تلك المئة وثمانون عاماً من الحكم الفرنجي . يومها لم يكن للمرء ان يضرب في رحاب الأرض كما يشاء. ولا نخال الاّ ان الغربيين الذين اتونا بالالوف من اوروبا جمعاء، وحتى من اسكندينافيا، كثيرون منهم لم يعودوا ابداً . « وكانت الزيجات المختلطة تتزايد، ولاسيما في المدن» (لامنس) . « احماؤنا واولادهم يسكنون معنا . وشاعت لغاتهم على ألفة بين رعايا الأمتين » (فوشه ده شارتر) .

وفي آونة متفاوتة، مقابل ذاك ، يتسرّب في لبنان وسوريا، من الشمال والجنوب ، خوارج على الاسلام القويم وتبّاع لمذاهب جديدة ، فينزلون طائفة بعد أخرى معقلاً يلوذون به . ان في ذلك لطابعاً مميزاً . وسواء كانوا اسماعيليين او نصيريين او دروزاً او شيعة فالأمر كان دوماً امر اقليات مهددة، مضطهدة ، يتسلق كل منها جبلاً ، كما فعل المسيحيون من قبل ، وكما لا زالوا يفعلون. وما برحت تلك الاقليات حتى اليوم حيثما نزلت بالامس دون تحوّل يذكر . ولنقل ان الجبال عندنا ، أو حولنا ، إن هي الا اقطاعة الاقليات. وليس في تفسير هذه الظاهرة أي عناء.

لن اتعوّق اكثر من ذلك على بقية هذا الموجز التاريخي . فلقد كلّمكم عنها سواي وأسهب ، ومن وجهة نظر أخرى . بيد

اني احرص على القول ان اهالي لبنان قد مُنوا غير مرة بإعصارات رهيبة ، منذ المماليك، ناهيك بما سبقهم او تلاهم ، من السلجوقيين وغزوات المنغول واجتياح تيمورلنك . يقول لامنس : « في غضون القرن الخامس عشر ، ولاسيما بعد ان ولّى شذّاذ تيمورلنك، أضحت بيروت ملتقى لمختلف السكان المتوسطيّين... لخليط يقصر عنه الوصف... فقد انتحت هذا الشاطىء الفينيقي كل لغات البحر المتوسط وكل الاجناس ... صفوة الحضارات المتنافسة وسُقاطتها، تسوقها ضرورات هي أولى ممّا بين الاجناس والعقائد من تباين . لكن الجبل اضحى مذّاك ، لحسن حظنا ، أصلب وأحرص وأقسى .

ثم يقبل بنو عثمان ، فما يلبثون ان تطالعهم سلالة لبنانية من امراء جديرين حقاً بهذا الاسم . هؤلاء المعنيون الافذاذ ، فالشهابيون بعدهم، قد وعوا إصالة هذه البلاد من خلال تفرّدياتها، كما اوتوا حدساً بصيرها ، اذا شئت ، الى تقليد لبناني يجري في الدم .

منذ فخر الدين الثاني ، هذا الذي ارتنحت له المخيلات في الغرب ، يمضي الاهلون في تزايد مطّرد ، ممّا يرفدهم به الشرق الادنى من مسيحيين على الاخصّ . ويوطد لبنان اكثر فاكثر شخصيته، وأكثر فأكثر يغدو ارض لجوء، مضطلعاً باحد ادواره الطبيعية .

امّا الغزوات فقد تضاءلت عن ذي قبل ، بفعل ما للسلطنة العثمانية المحدقة بلبنان من ابعاد ووسائل دفاع . (ثمة الى ذلك

محاولة بونابرت ومغامرة ابرهيم باشا). فضلاً عن ان الاضطهادات ، في بلاد السوى ، جذبت الى لبنان رجال الدين والعلمانيين ، وكادت تجذب اخيراً اليه جميع رؤساء المذاهب المسيحية في الشرق . حسبنا كي نتحقق ذلك ان نتطلع حولنا . وليس ذلك وليد الصدف .

من ثَمّ ، وبعد تفاصيل موجزة جداً أو جدّ مسهبة ، تبعاً لوجهة النظر ، نجد انفسنا حيال لبنانيّي اليوم ، حيال المليون والمئة او المئتي الف نسمة ، الذين هم نحن ، والذين هم لهذا الماضي العكر صفوته الحيّة .

ومن مهازل القدر ليس أقلّها ان يكون المخلوعون والمنفيون من امراء بني عثمان قد لاقوا على أرضنا ملاذهم الاخير . كما يجب الاّ يفوتنا ، رجاة فهم لبنان، ان عِشر سكانه الحاليين ، على الاقل ، وقد أمّوه من الخارج منذ ربع قرن لا أزيد، ليسوا لبنانيين الاّ منذ امد وجيز، وانهم في الأغلب ما زالوا يعيشون في إطار من تقاليد مستوردة ، قلما تمتّ الى تقاليدنا . فالارمن والروس والاتراك والعراقيون وحتى الاكراد ، وكم سواهم ، قد لاقوا هنا بيتهم المفقود، ولاقوا على الرغم من جفوة دهرهم شيئاً من ليان العيش. ولنضف على سبيل المثال، وليس على سبيل التضادّ، تلك التبدلات السكانية المعزوّة الى المهاجرة ، وقد تضخّمت ايّما تضخم بين اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. ولا بدّ اخيراً من الاشارة الى تلك الزيجات التي عقدت بين اللبنانيين والغربيين في الخمس والعشرين سنة الأخيرة ، مما

افضى اليوم الى ان الآلاف من وِلدة هذه البلاد يتحدّرون من مختلط الاصول .

بعد كل ذا، هلاّ قيل عن لبنان اليوم انه ساميّ ؟ هلاّ قيل عنه انه عربي ؟ لكلٍ منا ان يحكم . ان الأب لامنس ، وهو في ظني ينعم بالرأي الوجيه ، كان ينكر على سوريا عروبتها . فلسوريا في نظره ميسم فذّ : إنها سوريّة . ونقول من جهتنا ، وببيّنات أولى ، ان أهل لبنان هم لبنانيون لا اكثر ولا اقل . وانهم، ما خلا التجنسات الحديثة جداً، ليسوا فينيقيين اكثر منهم مصريين او لحيثيين او أشوريين او ماديين او يونانيّين او رومانيين او بيزنطيين او عرباً — بنسب أبوي او بدونه — او أوروبيين بالمصاهرة، او اتراكاً مثلاً. بل نقول اكثر ما نقول انهم منوّع متوسطي شدّ ما خفيت معالمه . ان له وجهه دون سواه. ولا يستطاع فهم لبنان اليوم ما لم يؤخذ هذا المنوّع حسبما هو .

اهل لبنان أولاء ، المستمسكون بوطنهم على الرغم من كل شيء ، يحملون الى البعيد شغفهم به وحنينهم اليه ، بمقدار ما هم مسوقون حكماً الى الارتحال عنه والمغامرة. لهؤلاء الاهلين، وقد امسوا وأسفاه أقل تكاثراً من ذي قبل ، الأمر الذي يصح اعتباره نذير خطر ، لهؤلاء الاهلين خاصة التزايد على مدى وسيع ، بفعل ما ينزل ارضهم من نزلاء، وخاصة التناقص، وليس على مدى أضيق ، بفعل ما يهجرهم من مهاجرين .

وهكذا تتبدّى الصيرورة اللبنانية موسومة بمياسم تتناقض

في ظاهرها، هي مياسم التقليدية والتحرّك . ولكنها تتّسم الى ذلك بميسم ايمان لا يحول .

وينبغي ألا يفوتنا، ونحن في هذا الشرق الذي يعاني الغليان دوماً كما يعاني مرض الجدل والتفسير، أننا أرض ميعاد للأقليات القلقة ، بل مرتفع تتصعّد منه كل الصلوات وتتناهى حرّة الى السماء الاكثر كوكبة وشفافية، بحيث غدونا فسيفساء دينية عزّ على الأرض نظيرها، وغدونا لا تجد ما نُدعى به ، داخل الأمة والحاضرة، الاّ معتقدنا أو طقوسنا . ولعل أهم علة وجود لهذه التفرديّة ، في أيامنا هذه ، الى ما تولّده العادة من قوة تُخشى عقباها، هو حذر الضعاف الغريزي، وفزع البعض من ان يتسلّط عليهم البعض الآخر . ولا كان احـد ليتكلم عن الأقليات لو لم يكن في ذاته فزع من اكثرية . لكنما يحدث في بعض الاحيان ان يجاوز الفزع حدّه ويمسي ضرباً من الوهم . وكثيراً ما ادّى تنوع الاصول والمعتقدات الى تنوّع العادات والشرائع ، كما تشهد على ذلك قوانين الأحوال الشخصية . ولعمري ان شأننا، كما نحن، من العقل المجرّد كان ليكون شأن المحال ، لو لم يقترن وجودنا بذاك اليقين المطمئن الذي نجابه به الفلاسفة .

ونحن في الحقيقة ضرورة . ناهيك بأن موقعنا الجغرافي يقيم منا بالنسبة الى الاجنبي محطاً ومعقلاً بالغَي الاهمية ، على طريق متزايد العالمية .

لكن الاهتمام الذي يولينـا اياه الغرب وسائر العـالم يرتهن

كذلك بأسباب أُخَر . فعلى صعيد المعتقد كان من الطبيعي واكثر أن نرى المرسلين يتجهون صوبنا . ولم يكن في مكنة السلطات الروحية التي ندين لها بالطاعة ان تتجاهلنا ، ولا كان في مكنتها ان تتجاهل قربنا من الاماكن المقدسة ، حيث ترتفع بشتى الصيَغ عبادة الاله الوَحد . نحن هنا في غمرة من التاريخ القديم وتاريخ الاديان والتاريخ المقدّس . والينا وَفدَ رجل الدين حاجاً ومرسلاً وعلاّمة . وبذلك تأتّى لنا التعليم ، وأخذ ينمو شيئاً بعد شيء ، حتى اضحى بجدّ ذاته علة وجود . وبعد ما كان هذا التعليم ابتدائياً في أول أمره ، جاء التعليم الثانوي فالتعليم العالي فرفداه تدريجاً، ليزدهر من ثمّ في جامعات كبرى ذاع صيتها .

وبرزت انماءات جمّة في جمّة مجالات، على صعيد العلم والبدْع الفكري . انماءات آلت الى اجتـذاب عدد وفر من الاجانب الى لبنان .

وتكاثر الاساتذة والتلاميذ من مختلف المناحي . فكان من أمر تدريس اللاهوت ، مثلاً ، انه أوجد الاكليريكية . وأوجد تدريسُ الطب العيادةَ والمستشفى وما اليهما من زبائن قادمين من دانٍ وبعيد . ولنذكر على هـذا الصعيد الاخير ، ان منافسة مهدِّدة تترسّخ أكثر فأكثر في جوارنا . فحق علينا ان نرقى حثيثاً بتقنياتنا ومناهجنا اذا نحن أردنا ألا يسبقنا الركب .

ولا بدّ من التنويه ، في النطاقين العلمي والأدبي ، ان لبنان

يجتذب طبعاً الاثري والمؤرخ والصحفي . كما يجتذب، من الناحية العملية ، تقنيّ المطبعة . وحسبنا نظرة الى ما حولنا . بذلك نصل الى مسألة اللغات، وهي مسألة كانت لتكون من البساطة بمكان، لو لم تداخلها مؤثرات لا طائل تحتها. فالعربية لغة رائعة، وهي لغة ملايين الناس. ونحن، لبنانيّي القرن العشرين، لا نكون ذاتنا، اذا نحن صدفنا عن ان نغدو سادتها كما كنا سادتها منذ مئة عام. ولعلّ ما وجب أن يلبث مطمحنا المشروع، لعلّها هو أن نجيدها ونلقنها على وجهها الاكمل، بحيث نستبقي لنا، الى نفوذنا ومكانتنا ، يداً في تزويد العالم العربي أكابرَ ادبائه وشعرائه وصحفيّيه .

لكن ألا يلاحَظ أول ما يلاحظ ان بلاداً كبلادنا إن لم تكن ثنائية اللغة (بل ثلاثية اللغة اذا امكن) تكن بلاداً بلا فعالية . اننا في الواقع ندّخر منذ سحيق العصور جمّة لغات حيّة وموات. فماذا يكون لدينا نسديه الى الشرق، ما لم نستمدّه من الغرب (وقل العكس ايضاً) . وكيف يكون لنا أن نصون وأن ننمي الروابط التي يقتضيها التعليم في مختلف مراتبه ، والبحث العلمي ، والتغرّب والاتّجار ، والسياحة عندنا ، وانتشار المهاجرين اللبنانيين بالآلاف في جنبات المعمور ، ناهيك بملزمات السياسة التي يمليها علينا موقعنا الجغرافي ، لو لم نؤت الى حدّ اللغة العربية، وليس دونها اتقاناً، احدى اللغات العالمية؟... وما كان للبنان الفينيقي إلّا أن يكون متعدّد اللغات ، حتى قبل ابتداع الابجدية ، ممّا هو لعمري تفوّق بذاته . كما انه ما برح

منذ فتح الاسكندر بلداً ذا لغتين على الاقل ، رسمياً وبالفعل . ولئن كان الاتراك في مدى تسلّطهم اربعة قرون ، لم يوفقوا الى فرض لغتهم ، بينما تخطّتها هذه أو تلك من لغات الغرب ، فلأن اللغة التركية لم تكن وسيلة مكالمة مع سائر الشعوب . ولقد فطن الاتراك لذلك ، ممّا آل بهم الى أن يضربوا المثل العُجاب ، مثل شعب لا يأبه للموهمات ، فيعزف لتوّه عن حروف أبجديته المتوارثة ، ليقتبس من الغرب حروف أبجديته ، تلك الحروف التي يعتمدها معظم الجنس الابيض (ونحن منه) والتي تتحدّر بدورها من أبجدية الفينيقيين . ولن تكون سوى تعصبيّة ، لا تخلو من الرثاثة والسخف ، تلك التي تسوقنا ، على هذا الصعيد ، الى تضحية مصالحنا الاكثر واقعية والحاحاً ، فنتأبّى في القرن العشرين ما اعتبره أسلافنا الالى ، في عهد روما وبيزنطية ، أمراً لا ندحة عنه . ان في ذلك اساءة الى بلادنا وحتى الى البلدان الجيران ممن حقّت علينا نحوها بعض الموجبات .

بقي ان ادعوكم للتأمل في ملاحظة لارتور روبّان ، العالم الاجتماعي الشهير ، الذي تولّى ، حتى وفاته منذ أمد وجيز ، منبر دروس الاحوال الاجتماعية اليهودية ، في جامعة القدس العبرية ، قال : « منذ الحرب الكونية الاولى زاد اعتماد اللغة الانكليزية بين يهود فلسطين ، اذ لم يروا بداً من أن يتكلموا بالاضافة الى لغتهم لغةً عالمية ، أسوة بالشعوب الأُخر . » هذه العبرة جديرة بأن نعتبر بها اذا نحن أبينا ان نمنى طوعاً بالصمم وبالبَكم من بعد . والى ذلك فلن أداهن جيراننا المقاديم ، وقد

خالوا وجوب بعث اللغة العبرية وسيلة بقاء ودفاع ، فأذهب الى حدّ المناداة ، في ما خصّنا ، ببعث اللغة الفينيقية ،أو الارمنية، أو السريانية . فنحن ، هنا ، من أولي الصواب . وآمل أننا لن نلجّ في المغالاة الى حدّ ذا .

* * *

هنا أود أن أعيد عبارتين وجيزتين من المحاضرة التي ألمعت اليها قبلاً. ولئن كنت أنوه بهذه المحاضرة فاحتماءً مني بوجاهة رأي الأب لامنس، الذي شرفني باستصواب لا تحفّظ فيه ، في مقال نشرته مجلة المشرق في شباط ١٩٣١ :

« من الناحية الاقتصادية ، وهي ناحية المبادلات، من يقل بالطريق يقل بانعدامٍ محتوم للحواجز والعقبات . وما من مرّة سُدّت فيها الطريق الرئيسية الا انبرى فاتح يقحمها عنوة » .

ومن الناحية السياسية : «ليس في وسع شعب ما، من حيث هو أمة، ان يحقق نموّه وأن يصمد على احدى هذه الطرق الرئيسية التي تستخدمها وتتشوف اليها امم عشرون سواه،دون ان يكون هذا الشعب بذاته موفور المناعة ،أو دون أن يشايع شعباً آخر، أياً كان، أو يحالفه. لذلك لم يقيض لهذه البلدان استقلال ناجز ، او على الاقل لم يقيض لها هذا الاستقلال الناجز الا لماماً او جزئياً اذا شئت » .

نحن، والحالة هذه ، سادة الطريق الى حدّ ما . ونحن لسنا اقوياء.إذن ليس في وسعنا ان ندّعي فتح هذه الطريق أو قطعها

على هوانا.وهذه القصة، قصتنا، هي كما لاحظنا قديمة قِدَم العالم وقِدَمنا نحن . ولعله هذا هو السبب الرئيسي الذي يحدو سادة العالم على الاهتمام بمصيرنا. وليس ذلك، كما لاحظنا ايضاً،بالسبب الوحيد.فالواقع ان هذه أو تلك من الدول الكبرى، وحضارتها معها، لا يمكنها ألا تأبه لمصيرنا، ولما نمثله من تراث روحي،دون ان تخلّ بواجبها المعنوي وسياستها معاً. ولقد تسنى لنا في آونة من التاريخ ان نلقى ذاتنا ، نسبياً ، في منأى عن الحياة وعن المتطلبات الدولية، كما كنّا عليه، مثلاً ، بعد اكتشاف الطريق البحرية الى الهند عبر « الرجاء الصالح » ، اذ صودف ان الدولة العثمانية كانت في ذروتها، وكان التصدّي لها ضرباً من الاجتراء. غير ان الحال قد تبدّلت مذ ذاك ، بحيث بتنا بفضل العلم والاكتشافات قلّما نخشى ان يعفونا النسيان قبل عفاء العالم .

هذا هو لبناننا الوادع الصغير، لا نتطلعه لوحده،بل متوسّد جيراناً أشد تعرضاً منه وأسرع عطباً (لأنهم ، جغرافياً ، اقل منه مَنعات) .

صحيح ان لنا من الطريق التي نحن عليها ، ومن المعقل الملاذ الذي يكتنفها ، منافع قابلة للازدياد ، فكرياً واقتصادياً لكنما يبدو جلياً ان لهذا الموقع مساوىء خطرة ، وانه يتوعّدنا ابداً، على صعيدي السياسة والاجتماع .

انه يجعلنا في استمرار غليان. حتى لكأن حالنا أشبه بالحركة الدائمة : دخول، كثيف احياناً، لأناس يندمجون في الحاضرة بلا إعداد اجتماعي وسياسي ، بلا سابق تمهيد . وبَراح اناس من

الحاضرة ، ذهاباً الى البعيد، ينقلون في رحالهم تقاليدهـا ، ولا
يقدرون حق القدر أيِ اختلال في التوازن يأتيه رحيلهم هذا.

هنا غرائس لم تعط كفياً من الوقت حتى تتبيأ، فتولاّها نمو
مضطرب. وهناك سنديانات وارفة اجتُثّت من ارضها وغرست
بعيداً دونما سؤال : هلاّ كانت بعدها خضرة أو أفياء .

اضف الى ذلك تدنيّاً نعانيه في مواليدنا، وما يعتور صلابتنا
الجسدية والخلقية من فتور . فكيف نقيم عيالاً وننشىء تقاليد ما
دام علينا ان نضم الى هذا القدر من المنكّلات تلك التي حُقّ
أن تعزى الى سياسة طالما كانت سياسة تخريب ؟

هنا يتبدّى، كما اخال، موقف عقيديّ وجبَ ان يكون في
طليعة ما نعتنقه؛ علماً بان لبنان، سياسياً، ليس بلد مجازفات
وانقلابات . انه بلد يخلق بتراثه ان يعصمه من القوة . وكل رجّة
تنتابه تسيء ، بقليل أو كثير ، الى ما يسديه الزمان اليه . ما من
يقين أثبت من هذا . ولكي نفصح عنه بمنطوق الاطباء نقول :
ان لبنان ، فيما هو يعاني عسراً في الهضم ، يظل عرضة لاحتقان
دماغي يُنزله به اولئك الذين يتمادون في قلقلته . وهذا ليس من
الصواب بشيء. فكم يجدر بنا ان نؤثر لبلادنا، على سبل الثورة ،
سبل تطور بطيء ، لكنّه عميق .

إذن سنقيم في وجه الحركة المفرطة التي تنزل الاختلال بتوازننا
مؤسسات ثبتة تستطيع ان تصمد ازاء الحملات ، اذا نحن
حرصنا ان نقيها العثرة عشر سنوات وحسب (وهذا لا يتيسّر

ما لم نجعلها على اتفاق تام مع طبيعة الامور). ولا أحسب الا أننا
جميعاً نلاحظ الى اين افضى بنا توالي التعديلات. واكثر ما يسترعي
البال ان الوضع لدى الوصول يتبدّى مماثلاً لما كانه لدى الانطلاق.
فما احوج لبنان اليوم الى موفور من المعرفة والتفهم لوضعه
الجغرافي ، ولما يثقل كاهله من أعباء ، طبيعية اذا شئت .
وما احوجه الى موفور من المعرفة والتفهم لطبيعة الجماعات المختلفة
التي تشترك في تأليف الشعب اللبناني. ولن يكون في لبنان قوانين
نظامية أو عادية، حريّة بالحياة، اذا هي لا تقيم وزناً لهذه الحقائق
العميقة . فعلى هديِ هذَين المعرفة والتفهم ، يمسي في وسعنا
ان نقول ما يلي :

١- بما ان لبنان بلد تتشارك فيه الأقليات الطائفية، فلا يمكنه
سياسياً ان يستمر طويلاً دون مجلس نيابي يكون محطّ التقاء
الطوائف واتحادها ، بغية المشاركة في اجراء الرقابة على حياة
الأمة السياسية . فحينما نستغني عن المجلس ننقل المناقشة لا محالة
الى المحراب أو في كنفه، ونؤخر بالمقابل التنشئة المدنية. (وحينما
لا يكون لنا مجلس نيابي لا يكون لنا ما نصدّ به ضغطاً عنيفاً
يأتي من الخارج) .

٢- وبما ان لبنان بلد ذو طبقات اجتماعية متباينة ، تراوح
بين أقصى الوَبر وأقصى الحضَر (حسبنا لفتة الى ما حولنا لنتيقن
ذلك) فليس له، وهو الذي تتوافر لديه قوانين الاحوال الشخصية
أن يتخذ من الشرائع ما لا يصحّ ، في الواقع، الاّ لهذه الفئة من

مواطنيه او لتلك ، لهذه المدينة أو لتلـك المنطقة . وفي بعض الحالات نرى بالغ التقدم في التشريـع يتلاقى وبالـغ الخطل في الحكم والادارة. وهل كانت الشرائع تسنّ في بلد الا" في سبيل اهليه كافة، مع معدل وافٍ، على الأقل، لتبريرها .

ممّا لا ريب فيه ان تطبيق مبدإ كهذا ينبغي ان يفسح في المجال لبعض الشواذ ، ولكثير من دقيق الفوارق . لكننا وجب ان نقيم الحساب لذلك ، اذا نحن ابينا ان يكون القانون نفسه مصدر عصيان او ظلامة .

٣– وبما ان لبنان بلد تحيق به المطامع وتتنازعه مبادىء انفصالية هي في طريق الزوال ، ان لم تُقترف بعض الحماقات ، كما تهدّده تطاولات شتى من قبـل الناشدين ارض الميعاد ، فإن عليه ، لكي يبقي عناصره اللوّامة في رخاء نسبي ولكي يقطع الطريق على الاغواءات المجاورة ، ان يجعل انظمته الضرائبيـة وقوانينه عامة تشتمل ، لبعض الوقت اقله ، على فائدة ما ، او على مكافأة ، او على تساهل ، بالنسبة الى قوانين الغير . ان هذا ليبدو بديهياً . ولا بدّ للاستقرار من عامل الديمومة .

٤– وبما ان لبنان بلد تجتازه الطريق في مفرقها ، وانه الى حدّ ما ساحة عمومية ، فإن عليـه ان يعزّز بشرائعه صرح تقاليده ، موثـّقاً بشتى الوسائل عرى العيلة اللبنانية ، ملقناً اولادنا إيثار الروحيّ على الزمنيّ والحرية على الرفاه .

سبق لنـا ونحن بصدد الاحوال السـكانية ان تـكلمنا عن

سويسرا . لا شك انها من العالم احد الامكنة التي تطالعنا بأوفر العبر ، نحن لبنـانيي القرن العشرين . فسويسرا التي تضع حبها لحرياتها في المرتبة الاولى ، هي قبل كل شيء بلاد عملية، مقتصدة ورزينة . فبعد حقبة تُعرف بالحقبة البطريقية ، وهي احدى اخصب الحقب في تاريخها، باتت الديمقراطية سيدة فيها ومليكة ، وما تزال هذي شأنها منذ مئة وخمسين عاماً . في سويسرا ، كما عندنا ، يلعب الجبل دوراً عظيماً . لكن السويسريّين في مجملهم ليسوا من اولي الجدلات البيزنطية والتكاسلات الطوال . انهم يتعشقون العمل ولا يبدّدون زمانهم بلغو الكلام. وفي سويسرا، كما عندنا ، وعلى بقعة صغيرة نسبياً ، وبين سكان من اربعـة ملايين ، تلتقي الاجناس واللغات والاديان. وبعد، فماذا نلاحظ في سويسرا ؟ نـلاحظ اولاً ذلك التقسيم الاقليمي والسياسي الرفيـع ، يتألف من اثنين وعشرين قضاء ، كل منها دولة ذات سيادة ، بحكومتها وبكل ما تشتمل عليه دولة ذات سيادة من جهاز تشريعي ، وتنفيذي ، وقضائي . ناهيك بان ثمـة ثلاث اقضية مقسومة نصفاً لاسباب طوبوغرافية ، او سياسية ، او سواها . وهنـاك طبعاً على رأس هـذه الحكومات الاقليمية حكومة سويسرا جمعاء ، بما لديها من مؤسسات ومجالس وشرائع . في سويسرا إذن اثنتان وعشرون دولة ما خلا الكسور . وكل دولة عدد سكانها لا يبلغ في معدله المئتي الف نسمة ، ينعمون افراداً وجماعات بالسكينة والوئام ، بفضل أحد اكثر الاجهزة السياسية تعقـداً في الكون . ان البورجوازي

السويسري ، كما ان العامل والفلاح ، على الرغم مما يؤثر عنهم من مزيد الحرص ، يعتبرون ان تنظيم سياستهم المشتركة ليس ، على باهظ ثمنه ، ضرباً من الترف ، وليس فيه شيء من الإفراط . بل يعلمون جيداً انهم مدينون له بقوتهم وبالسلم المديد الذي يوحّد بينهم . انهم لا يتذمرون هم ، ولا نسمعهم يرددون ما يتكاثر ترداده هنا ، أننا نرتدي رداءً جد فضفاض .

اما نحن ، فما من مرة خلال العشرين عاماً كان لنا فيها مجلس نيابي ، يستهدف اول ما يستهدف توطيد ارادة العيش المشترك عندنا، مجلس من شأنه ان يمكّن الماروني والسني والشيعي والدرزي والاورثوذكسي والملكي وسواهم من التداول معاً ، في مناخ القضية العامة ، مبتعداً بهم الى حين عن المصلحة الطائفية ، الاّ وعمدنا بشتى الوسائل الى الغضّ من مكانة هذا المجلس وتقويضه .

ولا ندحة عن القول ان ثمة رجالات كانوا يسهمون جذلين في هذا الصنيع ، رجالات لن تبرح تبعتهم باهظة . وهم فوق جهلهم لشؤوننا جهلاً مطبقاً ، في هذا الصعيد بالذات ، كانوا يخالون انهم يطبقون تطبيقاً صائباً نظريات قد تكون صائبة بالنسبة الى «بيرن» او «تورين» .

والى تلك فان حالنا في مجملها لأصعب مراساً من حال سويسرا . انها تتطلب مهما كلّف الامر حلول اعتدال وحكمة ، حلولاً تقتضي اول ما تقتضيه من اللبنانيين تمرساً جلوداً بتفهم الصالح العام . كما انها ، في مثل تلاقي الخطر المميت ، تعمل على

تلافي الاستبداد وتسلطن البعض على البعض الآخر، وغير ذلك من توترات .

فبحجة التيسير إذن ، بحجة اعطائنا حكومات على قدّنا ، على قدّ القزم (كما لو كان يمكن الاختصار في ذا الموضوع الى ما لا نهاية)، تهالكنا على تقويض ما كان يبدو وكأنه صورة للسكان اللبنانيين بتفاوتاتهم ومتناقضاتهم ، وهي طبعاً صورة خشنة ، ولكنها صورة صادقة دون ريب .

وبدلاً من ان نبذل الجهد كيما نرقى تدريجاً بمؤسسة لا غنية عنها ، رحنا نصمها كل مرة بالعضو السقيم، بالعضو الذي يستغنى عنه دونما سؤال : هل يستطيع الجسد ، فيما لو حرم من هذا العضو ، ان يستمر في اداء وظيفته ؟ وكمثل بنلوب لم نن نفعل طوال اعوام عشرين . هذه هي مغامرتنا الظريفة . ومع ذلك حينما اهتمت بنا الدول العظمى مرة أخرى سنة ١٨٦١ فسنة ١٨٦٤ ، وفي طليعتها فرنسا السمحة المحرّرة ، وحينما كلّفت هذه الدول سفراءها ان يتداولوا تنظيم مستقبل لبنان (لبنانٍ أقل تعقيداً مما هو اليوم) قرّر ستة اشخاص يمثلون ستة عواهل ، أكثرهم ديمقراطية يومذاك مليكة الانكليز ، قرّروا اعطاء لبنان مجلساً منتخباً ، ممثلاً للطوائف ، معتبرين ذلك ضرورة تستجيب لطبيعة الامور . ونعِمَ لبنان بحقبة خمسين عاماً ، تحفل بالطمأنينة والسلام .

بعد ذا يمكن تحديثنا قدر ما يرام عن حسنات الديمقراطية او سيئاتها ، عندما يتعلّق الامر بشرائعنا الاساسية .

فجوابنا سيكون بكل حزم اننا هنا أقليات طائفية متشاركة ، هدفها ان تتـّحد وتتآخى اكثر فأكثر على الصعيد السياسي . وان تقاليدنا ومناهجنا ، على ما هي عليه ، تظل غريبة عمّا للديمقراطية الفاضلة من مقتضيات تجريد .

سيقال : ولكن هذا المجلس كيف يكون تأليفه . وسلطاته ماذا تكون ؟ فلهذا حكاية اخرى لن اتصدّى لها هذا المساء . فالمبدأ وحده هو الساعة مـدار كلام . وسيقال : هذا المجلس سيكون دون المستوى، ولن يضم أفضل رؤوس البلاد. ستعوزه الكفاءة ويا بئس ما تكون فعـاله . فأبادر الى الجواب : هذا ممكن جداً. ينبغي العمل على تيسير مهمة هذا المجلس، او المجلس الذي يليه، على وجه افضل من ذي قبل.وبدلاً من ان نطـّرحه ونرذله ، ينبغي ان نيسّر مهمته ، لا ان نجعله سخرة للناس . وكم ينبغي ان نخفـّف عنه جزئياً ، والى حين ، الدقيق العسير من اعبائه ، متذكـّرين (دون ان تفوتنا علة وجوده الاولى) ان منبراً يقام في بلاد تعنى بها هذه الكثرة من الدول ليس وجوده نافلاً البتة ، وانه دوماً لأفضل من الاخطاء والتجاوزات التي يغلـّفها الصمت . لو كان فخرالدين وبشير من دنيانا في ما كرّ على هذه البلاد من صروف منذ اعوام ثمانين(ومنذ خمسة وعشرين عاماً على الاخص) لما كانا يفعلان غير ذا . ولكانا ، بلا ريب وبواقعية جديرة بثاقب نظرهما ، يضعان ضرورات الحياة فوق جميع الاعتبارات وفوق نوازع الجزع .

عذراً لهذا الكلام المسهب على الاقليات والمجلس النيابي. ففي

تجنّبه بدا لي عسيراً ان يساق عن لبنان اليوم تأملٌ يرتاح اليه الضمير . وهذا ما يحدوني على اختتام موضوع جد فسيح، ولمّا استنفد اغراضه . وهذا بديهي .

لا نكون اهلاً بالاحترام اذا نحن تناسينا ان « صور » كانت قبل قيام روما بألفي عام . بيد اننا نضلّ اذا نحن ساورنا بعض الغرور ، وصور على ما هي عليه الآن . ليس الماضي وحـده بتراث ، بل يجب ان يتبقـّى من الماضي شيء ما . فكيف نعي حقوقنا وواجباتنا ، مدنيّة كانت او سياسية ، اذا كان لا يعنينا ان نقرأ اسماء حاضراتنا على خريطة فينيقيا المتوغلة في القدم ، وان نتذكر ، مثـلاً ، ان طرابلس مدينة بوجودها وباسمها اليوناني ، في ما بعد ، الى مؤسسة فينيقيـة كان فيها لكل من صور وصيدا وارواد « مدينتها » وحيّها الخاص ؟ ليس الامر مجرّد اوهام وكلام. فمما لا ريبة فيه ان بلادنا الصغيرةهي احدى اجمل واحلى بلدان الارض قاطبة . اما ما هو اقل جمالا فهو ما يُلاحظ فيها من نظام او فوضى بشرية ، بل هو الحاضرة الحيّة، وانعدام الهندسة في الادمغة وفي العمارات على السواء . فالاولى بنا ، في الحيّز الذي نعيش فيه ، ان ندرك بادىء بدء اية نعمى لهذا الجبل علينا . فهذا الجبل ، وقد بات مجرد ضاحية ، بات علينا بعد اليوم ولأسباب شتى ان نعود فنرقاه ، بدلاً من ان ننحدر منه . وعلينا بوجه عام ان نتعلق بالتربـة وان نرد الى الارض حظوتها ، وان نوثر الفلاح بالحب ، ونحب معه الاشجار الحالية ، ورقرقـة الينابيـع ، والحقل والحديقة ، وان ننغمس

من جديد في سناء هذه الطبيعة التي تصدفنا عن سبل الصغارات.

بهذا النهج وحسب نستطيع ان نلبث من نحن دون ان نضل سويّ السبيل . نحن ، في الواقع ، نعرف بأية نظم يرتهن غدنا . وهذه النظم تفرض بيئة طبيعية لا تقود الى الوهن . لا شك ان صعابنا جسيمة وانها تبتغي لتذليلها جميع وسائل النهى والوجدان . فعندنا تتنازع وفرة من افكار ونظريات واوضاع، وعندنا كثيرون ممّن دخل في روعهم انهم إنما كانوا لتُعقد لهم ألوية القيادة ، بحيث ان الغرب يتطلعنا منذهلاً على اننا بلاد قادة ولا جيوش. وعلينا الى ذلك ان نجابه شتى المخاطر المترسخة فينا ، او على تخومنا ، او ما وراء البحار . اما الصعاب فاننا لنطوّعها اذا نحن قابلناها بسيّها من العزم والبأس. وما نبتنيه، على الرغم من كل شيء ، ليس نزلاً للسابلة ، ولا متجراً للتاجر ، ولا للنزيل والمهاجر مكتب جوازات. بل ان ما نبتنيه هو، على يد لبنان اليوم ، وطن مضياف وانساني .

قد ينتابنا احياناً شعور بالارتباك والخشية ، حيال تعقد العوامل القومية والدولية التي تهيمن على مصيرنا . لكن لنا ممّا جزناه وخلّفناه من مؤتلق ماضينا ما هو كفيل بتعهد ايماننا .

والطبيعة ذاتها التي تطالعنا بوجه وادع وقدير ، لهي دوماً على اهبة ان تشرع ممراتها وتذرونا ذرو الرياح . منذ سحيق العصور تتدافعنا من قارة الى اخرى قوة دافعة ، فتدفع معنا المطامح والاحلام . حين ان قوة مضادة تجتذب دوماً الى ديارنا

اشكالاً بشرية دائبة الترحال . وهكذا سيكون الى ابعد اباعد الغد . ثمة ، تفسيراً لذلك ، الطريق والمعتقدات والجزع الديني ، وثمة الاهواء اللامروية الغليل . وكما نكثر الحركة على الارض ، لا بد ان نثير في السماء جلبة ولا اكثر .

لقد تقضت قرون على محننا ورزايانا . وولّى الفاتحون وفتوحاتهم وبقينا نحن . فنحن المكان الذي يتبيأ فيه البشر من انّى اتوا ، وفيه تتصافح المدنيّات ، كما تتبادل فيه المعتقدات واللغات والطقوس شعائر الاحترام . انه بلد متوسطيّ قبل كل شيء . لكنه كالبحر المتوسط ذاته مرهف التحسس بالشعر الكونيّ . ان لبنان اليوم ، لبنان المستقل الحصين الذي يخص ابناءه، كل ابنائه على السواء، انما له وعليه ان يعلن حقه بالحياة. فله اكثر من اي وقت مضى مبرر لوجوده . ونحن لبنانيّي الجبل والسهل ومدن الشطّ والاطراف ، يتوجب علينا ان نتفانى في خدمته ، وان نخوض غمرات القتال اذا اقتضى ، ارادةَ ان نزفّه الى لبنانيي الغد موفور المنعة والكرامة.

ملاحظة للمؤلف في سنة ١٩٤٩

في الصفحة ١٣ تكلمنا على وشائج قربى مع اللاذقية، التي كانت «لاوديقة لبنان» . الا اننا في سنة ١٩٤٢ ، وعلى ذمة نصّ أعوزه التحقيق، فاتنا ان نميز بين لاوديقة البحر (اللاذقية) ولاوديقة لبنان، وهي كما يبدو مدينة قادش التي في جنوبي بحيرة حمص. لكن ملاحظتنا، سواء شئتها لهذه المدينة او للمنطقة الشمالية البحرية، لا يبرحها شيء من كنهها كما نخال .

قيم

سيداتي ، سادتي ،

لا بدّ لي من مصارحتكم ان موضوعي تناولته على صعيد المطلق ، ولم احاول ان اتبيّن إلامَ سيقودني هذا الموضوع . كان ينبغي توضيح مفهوم القيمة ، لي ولكم . ففعلت . وبشيء من نزوة الهوى أسهبت. فاذا «البيت اللبناني وتعميره» (*) لا نلقاهما الا في الصفحات الأخيرة ، اعتقاداً مني ان وضع القيمة في وضح النور ، والعودة الى مناشئها الأصيلة ، انما يعني تطبيقها تطبيقاً مجدياً على كل البلدان ، وبالتالي على لبنان . رجائي ، على كل حال ، ألا تعتبروا الوقت المكرّس لمفهوم القيمة — وهو الى حد ما فلسفيّ — ، رجائي الا تعتبروه وقتاً سدىً .

***

للتأمل في مفهوم القيمة يحمل الأخذ بشعار التسلسل ، اذ المسألة مسألة رَتب ومرتهَنات .

فثمة خير أسمى من خير ، وثمة شيء أدنى من شيء آخر (او بالأحرى فئة خيورٍ وفئة اشياء) . وقد تنقلب القيم بفعل الظروف

(*) موضوع نظمت الندوة حوله سلسلة من المحاضرات كانت محاضرة ميشال شيحا الحلقة الختامية لها .

رأساً على عقب . فقليل الماء في باطن اليد، اذا هو افتدى انساناً في لفح الصحراء ، ساوى ذهب العالم أجمع . كذلك الغنى ، فهو لامرىء عاقل في رمقه الاخير لا شيء البتة ، ما لم يكن من شأنه إسعاد الآخرين .

ولتقدير الاشياء وتصنيفها ، ينبغي النفاذ الى صميم الاشياء . كما ينبغي نزع العصائب عن أبصارنا واحدة تلو واحدة ، ولو انها نصف شفّافة اغلب الاحيان . فاذا العقدة تنحلّ على مهل، واذا البصيرة والبصر يألفان شيئاً فشيئاً ما ينظران . وهذا ما يفترض لمختلف انواع القيم ، وعلى تفاوت الدرجات، توافر التربية والتعليم وشتى وجوه الاختبار .

ان « بيوسياً » فظاً ليلبثنّ ، مثلاً ، عديم الحساسية امام الاكروبول . كما ان ثمة ماديّة تؤثر شغّيلا أو حمّالاً على امرىء شغوف بالتأملات . وهنـاك اناس كثيرون يؤثرون ضوضاء الشارع على آيات بتهوڤن . بكلمة : المرء عدوّ ما يجهل . وربّ جهول يقدم ، ولا يدري ، على مثل ما شهّر «الڤندال» في ايامهم وعاد عليهم بالصيت القبيح .

ولئن كان الذوق والحكم فطريّين بعض الاحيان ، فهما اجمالاً في حاجة للصقل والتثقيف . ومن أجل تذوق الفنون ، من أجل التمييز في الرسم أو في الهندسة المعمارية بين لوحة رائعة ولوحة شوهاء ، بين بناءٍ جميل ومركوم غير مهندم ، يقتضي المرء ، عدا ما يقتضيه من مؤهلات طبيعية ، عادة مزمنة بعض الإزمان .

فالقضية قضية قابلية واعداد ، قضية حساسية ومنطق. لا ريب ان هناك نفوساً موهوبة تكتنه كل شيء وتقدره قدره فطرياً اكاد اقول . لكنها نفوس في ندرى .

وفي سبيـل وضـع القيم في مصافـّها ، القيم التي تكوّن الشخصيات والتراثات ، يحتاج الافراد والشعوب الى الثقافة ، كما يحتاجون الى عبر الدهر وصنائع التقاليد ، عنيت الحكمة التي تقدمتهم . فثمة أصول ينبغي انتهاجها ومُثـل ينبغي ان ترسخ بالبال ، وثمة كلاسيكية لا بدّ من معرفتها والتبحر فيها ، حيال ما يطالعنا به الابتكار اليومي من شرعيّ الاجتراء .

وعليه فلا بدّ من مستوى حضاري معيّن، للفصل في ماهيّة المبادىء والاخـلاق ، في عظمة المؤسسات وصفو الخطوط ، واخيراً في كل ما هو جميل نبيل .

*
* *

يراوح تاريخ القيم بين قصر وطول ، بحسب الزاوية التي منها نتطلّع. ولست ادّعي اعادة تأليف هذا التاريخ وتداول مراحله معكم . كما أتبرأ من كل ميل الى التفلسف المنهج في مادة تفوتني منها بعض مرهفاتها ووجوهها الخاصة . حسبي ان أوافيـكم بما توارد الى ذهني من معلومات وانطباعات .

ممّا دُرج عليـه في الكلام عن القيم ان يؤتى عـلى ذكر الاغريق ، ولا سيما افلاطون وارسطو ، ومنهم انطلاقاً الى العصور الوسطى وما تحفل به من جهد وصمت؛ فإلى عصر النهضة

وما انبعث معها من قديم الآداب ؛ فالى العالم الحديث ومعه « كانت » وبعض أُخر ، ثم يعطى « نيتشه » مركزه الرئيسي ، ثم يتوالى نفر من المعاصرين . لكني من البعد عن المدرسة ومباحثها بحيث لا استطيع اضطلاعاً بهكذا مهمّة . وهي على كل حال مهمة قد تكون مملّة قدر ما تكون صارمة ، جافة . فليس من شأننا في ذا المساء تنظيم بيان يستهدف التوغل في الصوَر حتى منتهاها ، وفي اعمق اعماق كلمة تحتوي كل شيء . بل سنحاول بلوغها تبعاً للصدفة ، سالكين الدرب الأقصر أو طريق التلاميذ .

تاريخ القيم قصير ، بمعنى أن القرن العشرين هو الذي استحوذ على مفهوم « القيمة » ليبني منها نظرية عامة ، وهو الذي راح يمعن في استقصائها إمعانه في استقصاء الفضاء ، وما قبل التاريخ ، وشتى وجوه المادة حتى الذرة ؛ بل امعانه عملياً في استقصاء كل شيء .

يسوغ لنا انْ نذهب في الرأي الى انّ كلاّ من فعالنا ، حتى اسماها ، يقتضي في النهاية تقييماً ؛ وان مفهوم القيمة ، ضمناً او صراحة ، يستقطب حياتنا كلها . فالروحانية في اعلى مراتبها تتصل مباشرة بالقيم : « ماذا ينفع الانسان ـ على حدّ قول الآية ـ ان ربح العالم كله وخسر نفسه ؟» هوذا تقييم دقيق ، بالغ ، يضعنا في صميم القيم وامام اللانهاية في آن معاً . ثم ان الشيطان نفسه لو لم يعتبر نفسه كاسباً لما كان قد تحالف مع « فوست » .

علينا ان نعمل دوماً في ضوء تفضيلنا للاشياء القيّمة على الاشياء النزرة . لكننا هنا يتيه حكمنا في ضلالاتٍ محزنة .

وهل المتَع الدنيا ، ومصطنع الجنّات ، وازاهير الشر ، اذا شئتم (تلك التي لا تمتّ بشيء الى ملهمات بودلير)، هل هي ذات قيمة ازاء مصير الانسان ؟ كذلك قل عن الخمرة ونشوتها وما يستتبع اللهو والرقص وتلك اللذّات المرّة التي يَفتضح كنهها في سويداء الصباح ، اذ يكون علينا ان نؤدّي الحسابات العُجاب !

« الغيّ والحماقة والخِسّة والخطيئة ،
تمتلك ألبابنا وتقرض منا الاجساد ... »

كان بودلير خير فهّامة بالقيم ، وكان يعرف من خلال خدائع ابليس كيف يقدر مرتقيات النفس حق قدرها . وقيّض له في مستهل ديوان له ، بدا كل ما فيه ناشزاً اول الامر ، قيّض له ان يسمو بالعذاب الى الطبقات العلى :

«بوركت يا الهي ، يا من انعمت علينا العذاب ،
بلسماً قدسياً لأدناسنا ... »

ها هي قيمة لامنتظرة أكاد اقول . وهي ، لفرط توافرها حيثما كان ، قليلة الرواج في السوق .

وبموازاة بودلير نرى « پاسكال » ، پاسكال الجنسيني ، سيداً من سادة القيم وأي سيد ! نراه ، وقد تملّكه هاجس الهوّة ،

يتأمل في السلوان فيقول : « لمّا عجز البشر عـن النجاة من الموت والبؤس والجهل ارتأوا ، تعللاً بالسعادة ، ألا يبالوا بهذي الامور» . فالقيمة التي ينبغي اقتباسها هنا هي النسيان ، النسيان العابر ، النسيان البلسم ، النسيان الهروب . ويتابع پاسكال : من هنا كان البشر مولعين بالضوضاء والحركة . لكن لنا عودة الى پاسكال ، فما من بحث روحيّ يغفله او يستنفده .

* * *

وبما ان كل شيء هو في النهاية قيَم ، فإنما ينبغي ولوج هذا الكون بأصفى النوايا ، وفي اليد ميزان . ويخيّل الى المرء ، إن هو لم يحدّ فكره ، ان الأمر تافه ، لا في كنهه بل في مداه . الا ان مجال القيم لأبعد من ان يطاله تكهّن .

ان كلمة قيَم تذكّر لأول مداناة ، تذكّر الذين لا يلمّون بفحواها على الاقل ، بالسوق والبورصة ، بضوضاء المزايدات وتثمينات الجمهور المتناقضة في البيع او في الشراء . قيم منقولة ، قيم تداولية ، قيم وهمية ، حقائق او سراب ، نماذج بلا قيمة : تعابير مألوفة تخطر ببالنا مع بعض السمات على بعض السلع . ثم لا يلبث مفهوم القيمة ان يصفو على مهَل . انه يتحرّر من مادتـه ويتصاعد . ثم ان الكاتب بـدوره تهمّه القيم : قيمة التعابير ، قيمة الكلمات . (ويحضرنا هنا السؤال القلِق الذي وجّهه بولينوس الى هاملِت : « ماذا تقرأ يا سيدي ؟ ـ كلمات ، كلمات ، كلمات » .) وبقدر ما تتّسع القيمة وما يضفي عليها

المعجم والاستعمال من معانٍ شتّى ، بقدر ذلك نرى اللفظة الواحـدة تتكاثر ، فاذا هي نلقـاها في الرياضيات والموسيقى والرسم ، واذا هي تنطبق انطباقاً رائعاً على الأرقام والألحان والألوان ، واذا نحن نتبيّن اخيراً انه عالم قائم بذاته ، يرقى حتى المعارف الاكثر تجريداً والفضائل التي في ندَرى . وكما نستجلي السبل الضائعة بين كثيث الادغال ، لندرك المناهل التي ترفـد السواقي والانهار ، كذلك نحن بحاجـة الى تصنيف او اكثر ، تصنيف موقت او بدء تصنيف على الاقل .

* * *

وثمة في المطلق قيَم اقتصادية (ابتداءً من حبة الحنطة يمسي كل شيء ثراء) ، وثمة قيَم منطقية (تستهدف عدا معرفة الاشياء وقدرها القدر الصواب ، تستهدف امتلاك العلوم الرياضية على اختلافها والعلوم الفيزيائية والطبيعية) ، وثمة قيَم خلقية مستمدّة من السنّة الطبيعية (تضاف اليها القيَم الاجتماعية والسياسية ، موضوع الساعة في أيامنا هذه . وهي التي تفضي ، عبر شخصية كل انسان ، الى تنوّع المجتمعات البشرية) .

وثمة بلا شك قيَم جمالية ترحب آفـاق الذوق والفنون . لكنها توثَـق احياناً بالقيم المنطقية لانطوائها على النقد والحكم والاختيار .

وثمة اخيراً ، ضمن القيم المنطقية والخلقية ، قيم فلسفية يجدر توزيعها بين هـاتين الفئتين . وفي ذروتها ، بالنسبة الى معظم

البشرية على الاقل ، نلقى القيم الروحية التي تتخذ من القيم الخلقية نقطة انطلاق . كما نلقى القيم الدينية : قيم الماورائيات والايمان . هذه القيم تعبر العاجلة على رجاء الآجلة ، وتنضوي الى المصلّيات ، حيث تستطلع وجه ربها في عليائه وترفع اليه العبادة والشكران .

وهكذا يكون المضيّ من شيء زهيد ، شيء عادي ، ثمرة من ثمار الارض . حتى اذا تمّ الصعود واسهمت فيه البديهة والبصيرة والفؤاد ، أدّى ذلك ، بالتبحّر ، بالمختبر ، بالتأمل ، الى ادراك «الفكرة الالهية ، سيدة الكل مذ كان العالم» (ڤيريكور : القوى البيولوجية التي للانسان على الانسان ، مجلّة «دراسات» ، ١٠ نيسان ١٩٤٨) .

امّا القيم الاقتصادية فكل منّا يعرفها ، ولكن دون ان يتثبتها تمام التثبت أغلب الاحيان . فالقيمة التبادلية ، والقيمة الذاتية ، والقيمة التجارية ، عبارات ليست وقفاً على الاقتصاد السياسي وحسب ، بل هي مألوفة في الحياة ، تتناول على السواء خبزنا اليومي المتواضع وما نتبادله من خدمات ؛ تتناول جورب الصوف وما يتخلّله من ثقوب . فالمنقولات والعقارات والسلَع والديون والاموال الزمنية على انواعها ، وكل ما يدعى ثراء ، وكل ما نتهالك في اطّلابه ، كل هذا له قدره في مقياس القيم الاقتصادية . لكننا هذه الفئة من القيم ، هذه الفئة الكبرى التي تتّجه صوبها حاجاتنا ورغائبنا ، نراها اليوم بعدما توالت عليها الحروب والحِدثان ، وبعدما انهالت عليها من الجماهير مطالب

لا حدّ لها ، نراها اليوم اكثر من أي وقت مضى تذوب كالشمع وكالاحلام تتبدّد .

وامّا القيم الأخرى ، ومنها تسلسلاً القيم المنطقية والجمالية والخلقية ، فهي على العكس : نلقى فيها قبل قيمة الشيء قيمة الانسان . فبالانسان وجب الابتداء . فهو الجوهر ، وهو الذي يعنينا اول ما يعنينا . وليست المسألة هنا مسألة ثروة نتناولها بالتثمين ، بل معارف ومواهب وحكمة نحاول اقتدارها ، بل علم وفن ، بل شعر متجسّد في ذي النفس أو تلك ، في ذا الحجى أو ذاك ، بل ثقافة وتوق الى المعرفة ومزايا وامكانات. حتى اذا خرجنا من عالم الاقتصاد ، هذا العالم الذي يبوّئه الكثيرون ممّن كلّت أبصارهم مقاماً أول ، سمونا على مهل الى تذوق الروائع (وعرانا قرف ممّا عداها) ، سمونا الى تمجيد كل سنيّ ، أكان ذلك في داخلنا أم لا .

في عالم القيم هذه ، حيث الروح تضطلع بالدور الاول وتُعدّ النخبة ، ليست الاشياء المادية ما نهواه وما نسعى اليه (خلا الجمال المجسّد في المادة . وانتم تذكرون ولا شك قولاً لكيتس : الشيء الجميل قرّة للعين دائمة) ، ان ما نهواه ونسعى اليه إنْ هو الاّ جوهر للكلام وبلاغة . انه رهافة في الحكم والنظرة . انه نبل مقاصد . انه المزية الخلقية والجرأة والاقدام والتجرّد والمسلك في الحاضرة . وكتعبير مطلق عن قوة النفس اذا شئت : انه « ذاك الازدراء للموت ، كزهرة على شفتين » ، على حدّ قول سامان .

اذاك نلقى ذاتنا حيال نوع من الازدواجية أو من فصل الممتلكات، حيال ما يمكن حلّه بالمال من جهة، ومن جهة اخرى، وعلى صعيد مختلف تمام الاختلاف، حيال ما يمكن حلّه بالتسامي. من هذه المقارنة، لا بل من هذا التضادّ الذي ينحتم على عقلنا، تبرز لفورها وبلا تردّد أولوية الروح.

فالروح وانعكاساتها هي التي تسبغ على رائعة النحّات والرسّام قيمتها.

وثمة في القيم، على اختلافها، قيم موضوعية وقيم ذاتية. قيم تتضمنها الاشياء بحد نفسها، وقيم نضفيها نحن على الاشياء. ثمة، كما قلنا، قيمة الانسان الذي أبدع الرائعة، أو صاغ القصيدة، أو حقّق الانتصار، قبل قيمة الرائعة بحدّ نفسها، أو قيمة القصيدة، أو قيمة الانتصار. ثمة فيدياس قبل أي تمثال رخاميّ لفيدياس. ثمة افلاطون قبل اي «حوار» لافلاطون. ثمة الاسكندر يفكّر في ما سيعمله الاسكندر. لكننا بفعل ردة طبيعية، نرى الرائعة التي تتخطى بعمرها المديد عمر العبقرية التي ابتدعتها، نراها تترجّع في كل جيل، وفي كل انسان يدانيها متفهماً. وهذه الرعشة تمسي مدعاة متع لنا بقدر ما تكون قلوبنا مشرعة على ما هو حق وخير وجمال. ذلك ما يحدث لدى تقرّبنا الى ذرى البشرية من مفكرين وشعراء وصوفيّين وفنانين مجلّين، من مثل ارسطو وتوما الاكويني، وتريزيا داڤيلا، وميكلنج وشكسبير وباسكال وراسين وبتهوفن. ونحن اذ نستشهد بهذه الاسماء المكرّسة،

نزداد تحسّساً بذاتية القيم. أليس في ايامنا هذه مليار انسان ونيف، قريباً من هنا او هناك او هنالك، لا يعلمون البتة شيئاً عن هذه الاسماء وعن الكثر من امثالها. فهل يدور ذلك في خلدكم احياناً؟ ان العالم لا يفتأ في منأى عن المعرفة. وعلى الرغم من الاكتشافات، لا بل بسببها احياناً، يقتضي للقيم السامية زمن طويل كيما تبلغ الحاسات والعقول بلوغاً وفياً، وكي لا تظل البشرية تتردّى في نكسة تلو نكسة، بل تستقرّ وتمضي صعداً.

مرة أخرى، لن اخوض في جدل مدرسي بصدد ما للقيم من تصنيفات ممكنة. فما احاول ايراده، هنا، ما هو الا ردّات فعل شخصية، بعيدة عمّا يطلقه الفلاسفة من احكام، انْ كان ثمة من احكام يمكن اعتبارها نهائية.

واذا لم يكن، في ما أبسطه، سوى تقريبيّات حريّة بالقبول، او جزء من الحقيقة جوهري، فذلك حسبي. لان ما اتوخّاه الآن معكم هو ايقاظ الحسّ بالقيم، هو إلمامة مجملة تتيح للقيم، لطبيعتها، لمراتبها، تحديداً سريعاً لا شبهة فيه.

في غمرة تلك الضجة التي تحدق بكل شيء، في غمرة تلك الضوضاء وتلك البلبلة التي تنتاب الأذهان والألسن، نتحقق جميعاً ان الحسّ بالقيم قد فقد الكثير من منعته، واننا لم نبق في صلابة آبائنا وتشدّدهم، وان احكامنا شأنها من الحقيقة شأن النقد المتقلّب، في عصرنا، من النقد الثبت في الماضي القريب. فالنقد الزائف هو العملة الرائجة اليوم ومثله آراؤنا زائفة.

وكثيراً ما نقلّل من قدر ما كان ذا قدر اكبر في آونة أُخر ، يوم كانت قوى النفس موفورة الاتزان . هـذا لا يعني طبعاً ان عصرنا ليس اغرب العصور واحفلها بالخوارق. فهو بالاكتشافات يفيض ، كما يفيض بالمأمولات وباللانهاية أكاد اقول . وعليه ، سأستشهد بواحد من علماء اليوم ، اقتبست منه لأجلكم عبارة واحدة قرأتها منذ اسبوعين: (الدكتور لاقاليه، «دراسات» ١٩٤٨، من مقال له بعنوان : خيبة الامل من عصر التقدم) «يقوم تنافر مفجع بين ما احرزته التقنيّة من نجاح باهر وما تقاسيه المدنيّة من انقراض . فبالمعرفة (وهي قيمة منطقية) غدونا انصاف آلهة ، وبالاخلاق (وهي قيمة خلقية) تقهقرنا حتى البرابر . لعمري إنه وضع لا يُحتمل انْ يكون المرء في هكذا انفلاق ».

لا شك ان معنى الحق والخير والجمال هو المعنى المغلوط فيه ! فما الجمال ؟ ما الخير ؟ ما الحق ؟ ويسأل بيلاطس: ما هي الحقيقة ؟ لكننا ، في هذه الكلمات الثلاث ، نلقى تصنيفاً آخر ، تصنيفاً للقيم ابعد تجريداً ، وعلى تأليف اشدّ .

الحق والخير والجمال كلمات ثلاث مألوفة تجعلنا ، واعجباه ، في مثل حلم . لكنها في ذي الساعة تبدو وكأنها في تيه . حتى ليخامرنا السؤال ، في بحثنا عنها ، اي اتجاه نتّجه ، لفرط ما الفوضى تشيع ولفرط ما يستحوذ الوهم والخطل على كل شيء . هذه الكلمات الموجزة ، هذه التي تكاد تكون من مقطع واحد وتكاد لا تفترق ، ما اشبهها بالاجسام البسيطة في الكيمياء (هذا اذا بقيت بعد تفكيك الذرة اجسام بسيطة) . فهي لا تقبل

تبسيطاً ، ولعلها لا تقبـل التحديد . فكيف تفسيرها تفسيراً وافياً إن لم يكن تفسيرها بحدّ ذاتها ؟

يقولون لنا ان الحق هو الذي يطابق الحقيقة ، وان الجمال هو الذي تقرّ به النفس والعين ، وان الخير هو الذي يتفق مع الواجب . كلكم ولا شك تشعرون بسقامة هـذه التحديدات وافتقارها الى البلاغة والبيان ، حتى لينبغي الإقرار بأنها ، في تفسيرها هذا ، لا تفسّر الشيء الكثير . ان الحق والخير والجمال لهي في الاساس حقـائق راهنة ينبغي ان تفرض نفسها فرضاً كشمس الظهيرة . لكننا يجب ، في كل شيء ، ان يؤخذ برأي كل امرىء وذهنيته . حقائق راهنة ، صحيح ، ولكنها بالفعل نسبية وذاتيـة . اذ ان قيم الخير والحق والجمال ليست ، ويا للغرابة ، واحدة لكل انسان . وقد لا تكون واحـدة لكل منا ، نحن المجتمعين الآن في ذا المكان . فبـاسم الحق والخير والجمال بالذات قد نختلف ، وعلى امور شتى يكون الاختلاف .

لأن كل شيء يتبدّل ، حتى لو لبثنا في مكاننا لا نخطو خطوة واحدة ، فكم بالحري اذا باعدتنا عن مألوف آفاقنا ساعـة طيران . وما هو حق في ذا المنقلب من الجبل يضحي بطلاً في ذاك . هذه هي الحال ، ولمّا تزل ، اكثر من أي زمن مضى وفي كل مـكان . « فربّ ارتفاع عن القطب درجات ثلاثاً يقلب الشرائع رأساً على عقب ، وربّ خط من خطوط الطول يقضي في الحقيقة قضاءه الفصل » . ابداً كما كان منذ ثلاثة قرون ، وعلى الدوام .

ويضيف پاسكال : « في بضع سنوات من التملك تتعرّض الشرائع الأساسية للتبديل. فللحق ازمنته ... ومضحكة فعلاً تلك العدالة التي تحدّها ساقية ...» ونحن نتساءل بدورنا عن القيم اين هي ؟... ويخامرنا الى ذلك شعور بأنه ينبغي ألا تضمحل .

ولقد شهدنا هذه السنوات، في اوروبا وحدها، مفاهيم بلغت من تضادها وتصارعها حداً اصبحت معه كالليل والنهار . الا فانظروا كيف ان كل شيء قد تبدل ويتبدل ذهاباً من لندن الى باريس فروما فبرلين فڤرصوفيا فموسكو .

خذوا نظاماً سياسياً معيناً ، ثم خذوا نظاماً آخر وقارنوا بينها: وسرعان ما يتهافت من القيم نصفها . وكما العصور القاتمة (والحديثة نسبياً) شهدت حملة على الصوَر والايقونات، كذلك يتناول التهديم، اليوم، فئات برمتها من النعم الروحية والخلقية والمادية. فالشرق يتصدى للغرب هازئاً. يتصدى لماضيه، لتوازنه، ولآلهته. والغرب يعتبر الشرق مسخاً، ويعتبره ضلالاً يبطل معنى الحياة والموت، بحيث ان اناساً بالملايين ، ممن يحسبون الحقيقة في حوزتهم، او يحسبون انهم في اطلابها، تراهم يعانون حشواً للمخ ولا اغبى وتشويهاً دعائياً فتكُه بليغ. وبعد، كم هم في ذا العالم المختل اولئك الذين ما برحوا متفقين على جوهر الحق والخير والجمال ؟ والى ذلك ترانا نلقى في اعماق قلوبنا، ودون اي جهد منا لبلوغ تلك الاعماق، نلقى تلك السنّة الطبيعية، تلك القيمة الاساسية ، ذلك الصوت الملحاح في العزلة وفي الصمت ، ذلك الصوت الذي يختزن، الى بساطته، قوة متفجرة حقاً ، ويرينا دونما عناء ، على

الصعيد الخلقي، على صعيد الضمير، اقلّه كنه الخير والحق والجمال. ممّا لا شك فيه اننا لا يسعنا تناول القيم المنطقية او الجمالية او الاقتصادية بمثل قولنا هذا. فهي تستلزم الموهبة والتعليم والتدريب والأرقام والخبرة، كما تنهل من مناهل لا يجفّ معينها ، مناهـل العلم السائر قدمـاً والحياة المتطورة يوماً بعد يوم . لكن السنّة الطبيعية التي تعيب علينا من تلقائها فعلة سيئة ، والتي توقظ فينا ندامة منتصف الليل ، والتي تبدي لنا اننا مخطئون ، في ما قـد تبرّره لنا الشريعة البشرية بالذات، لكن هذه السنّة الطبيعية هل نستطيع ان ننكر عليها، دون محاباة ، قدرها البالغ وحضورها الفوري ؟

لا ريب أنها ، على الصعيد الخلقي الذي هو صعيدها ، أعجز من ان تسبر لوحدهـا كنه الحق والخـير والجمال . ولئن نحن أبرزناها مثالاً فلاستخلاص عنصر فطري مستقرّ في عـالم للقيم ليس له قرار ، عنصر شامل لا يحول ، ثابت في أبسط نواهيه ، يري الانسان الواعي تلك الوحدة الغائيّة التي لجنسه ومحتده .

امّا في ما عدا ذلك فلكل حضارة قيَمها في ذا العالم الدائم الصيرورة. وكل حضارة تواكبها جدالاتها ومنازعاتها. قيم الماضي والحال والمآل، أي مدى للاستقصاء هي، واين هي من ممكن تعدادها ؟

* * *

كثير من قيَم الماضي قد عفا واندثر، بينما قيّض لقيم أخرى

البقاء والنمو. وليس استنطاق الحضارات الغابرة ضرورياً للتاريخ فحسب، بل لعلم الاخلاق والجمالية ولكل شيء . امّا القول أن الانسان كثيراً ما أوغل في الماضي ، فهو على كل حال من باب القول ليس الاّ. اذ ان خمسة او ستة آلاف سنة هل هي في المطلق شيء يذكر ؟

وهناك الآن محاولة على أرضنا. انهم بعد ليل طويل يحاولون الاهتداء خطوة خطوة الى اصول الحياة وأولى بوادرها. فالانسان يسعى شغوفاً إثر الانسان . وهو انما إثر قيمته في الماضي يسعى.

والماضي كانت له قيَمه جيلاً بعد جيل ، والفاً بعد ألف . وبقدر ما يتاح اكتناه هذه القيَم ، بقدر ما يتاح فك الغازها ، بقدر ذلك يمكن احلالها اليوم في مصافـّها من الحق والخير والجمال، أو بصورة ادقّ من القيَم الاقتصادية، والقيَم المنطقية، والقيَم الخلقية ، وسائر القيم .

ففي نطاق القيم الاقتصادية تمّ اكتشاف الكثير من اشياء ما قبل التاريخ، ومن اشياء مطلعه المتردّد . امّا في ما عنى القيم الخلقية والمنطقية فليس لدينا، قبل الرموز والأبجدية والالفاظ ، سوى الاستنتاج والافتراض ، يقومان (كلما كان ذلك ممكناً) مقام التعبير الكتابي عن الفكرة، ومقام الحكاية المدوّنة للمغامرة البشرية. وليس لدينا من القيم الجمالية سوى تلك الرسوم الصخرية المتبقية من اقدم الفنون، تطالعنا على جدران المغاور مثل الاشياء الحيّة المؤثرة . كما ان لنا منها تلك الأدوات المنحوتة من الحجر

الصلد ، أو من العاج، ممّا يبلغ احياناً في نقشه وخطوطه فناً في منتهى الارهاف والذوق .

امّا العملة، تلك القيمة الاقتصادية التي أضحت بذاتها مقياساً للقيم الاقتصادية، فلم تر النور الاّ متأخرة، اي قبل تاريخنا بسبعة أو ثمانية قرون. كان الناس قبلذاك يقايضون، أو كانوا يتخذون معياراً لهم من بعض منتجات الريف المباشرة أو غير المباشرة، كمكيال قمح، مثلاً، أو خروف. وكانت القيَم الخلقية والمنطقية، من جهتها، تتجلّى على مهل، حتى ان الشرق الأقصى والأوسط وشرقنا ما زالوا يحتفظون ، من قيم الماضي السحيق ، بشهادات ولا ابلغ. يومذاك لم تكن اوروبا بعد، ولا كانت اميركا .

ان أبرز ما خلـّفته لنا العصور القديمة من قِيَم يشهد على اكثر من موقف جلل إزاء الحياة والموت، ازاء الجمال والحب والخلود. وهذه المواقف نكاد نلقاها حيثما كان : معابدَ وتقادِم ونذوراً ومخلّدات لذكرى الأموات واناشيد للعزّة الالهية ، ورسوماً للقدر والآلهة .

وفي أيام حمورابي ، قبل المسيح بألفي عام ، كانت الشرائع قد أمست ، وبصورة واثقة أمست، من القيم الخلقية . وحوالي تلك الايام ، كانت الأبجدية ، وهي القيمة التي لا تثمّن ، تتخذ شكلها ، وتزُف الى الناس بشائر الكتب المقدسة الاولى . واذا بضعة قرون تضعنا أمام هوميروس ، واذا بضعة أُخر تضعنا امام سقراط وافلاطون وارسطو. اذاك يتألق عالم القيم في شرقي

البحر الابيض المتوسط . انها حضارة الاغريق في أوجها . ومن ثم تنشأ ، الى جانب الانبياء والتشريع الاسرائيلي ، فلسفة ما قبل المسيحية : فلسفة بهرها اكتشاف الزمان والمدى ، فيما تنشد الاله المجهول . ثم تكون المسيحية وما تأتى منها ، فاذا القيم تتحدّد معالمها وتتحرر من اجسادها وترقى ، واذا معرفة الروح ، منذ تجلّي «الروح» ، تفرض نفسها فرضاً رائعاً ، فتنتصر القيم الروحية مذّاك ، ويحفل السنكسار بأولئك الذين يستشهدون وهم يرتّلون من اجل فكرة او ايمان ، يقيناً منهم ان ثمة قيماً تتخطى الاشياء البشرية تخطياً لا تحدّه حدود .

وفي هذا الجوّ المتلبّد عاشت روما ايام سؤددها وايام انحطاطها . وفي هذا الجوّ عاشت بيزنطا والعصور الوسطى والحديثة كلها . لكنها في الوقت عينه عاشت في استقرار حضارة صاعدة أسبغت على اوروبا ونصف العالم سيماءها وذلكم المجد . ثم أتى « الاصلاح » الديني ، وأتى بعده الموسوعيون . ثم كانت الثورة الفرنسية ، وكانت بعدها ثورات أُخر . ثم توالت الاكتشافات المذهلة . واخيراً ، وعبر حروب رهيبة ، تبدّت الماركسية الحاكمة ، وتبدّى معها النزاع الاساسي ، ذاك النزاع المعمّى الذي يشطر العالم كما لم يشطره مرة من قبل ، ويطرح على بساط البحث أسمى القيم ، تلك التي من أجلها ارتضت اجيال واجيال ان تعيش وان تموت في مثل نشوة صوفية واعية .

* * *

أي رأي يُرى عن عالم اليوم ، اي قول يقال عنه على صعيد

القيم ؟ الا ان هذا العالم قد ضلّ محوره ، وانه في صراع مع نفسه حول قيم تقليدية وقيم وهمية ، وانه من جهة يدّعي إقامة مجتمع على العدم ، بينما تنتابه ، من جهة أخرى ، رعشة تهزّه في الاعماق . بيد اننا لحسن الحظ نرى الروح تقاوم بالقوة اللامحدودة التي نعهدها في الروح .

وعلى الرغم من كل النظريات ، ومن الاكتشافات كلها ، بقيت حياة الانسان المقتصرة على حياة الجسد وستبقى شيئاً تفهاً . وهي لعمري شيء تفه إن هي لم تطّلب شيئاً ، ان هي لم تلق شيئاً وراء المرض والألم والهرم والموت .

وليست الناحية الروحية والدينية فحسب ما يمتلك علينا ألبابنا (على الرغم منانها، على صعيد الغائيّة تسود على الاخريات) بل نتوخّى من خلالها الناحية السياسية والاجتماعية التي تقوم عليها الأمم والشرائع وبشرية اليوم . وها ان القيم الدينية تسوس في معظمها القيم الخلقية ، شئنا أو ابينا ، اذ ان مواقف الانسان الاساسية تكون بحسب ما يكون الازلي الصمد هو القيمة العليا أو لا . كما ان الشرائع التي تبنى نفسياً على العدالة الازلية تتوطّد او تتهافت ، بحسب ما النفس تكون خالدة أو لا تكون . ناهيك بأن اسمى الفضائل ، تلك التي ترتكز على النزاهة الطبيعية التي لا تساوم ولا تلين ، وعلى الإباء في أعلى عليّيه ، ان هي تركت على سجيتها خارت مناعتها أمام بعض التجاريب . تذكرون ولا شك قصة ذلك الموظف الصيني : هب ان ضغطاً على زرٍّ يودي بحياة موظف مغمور على بعد آلاف الفراسخ ،

مثوي العمر ، في مدينة ضائعة من مجاهل الصين ، ودون ان يدري به احد . فاذا كانت هذه الحركة الغامضة ، العابرة ، كفيلة بأن تضمن لفاعلها ثروة بالمليارات ، وان تمّحي على الفور آثارها ، فكم من الناس ، ممّن هم اقلّ الناس شرّاً ، بل قل كم من الصلّاح يتردّدون في ضغط الزرّ ؟ واية شرائع بشرية تحول دون ارتكاب الجريمة سراً ، وفي دمس الليل ،لو لم تكن الشريعة اللامكتوبة ، تلك التي تمليها السنّة الطبيعية على ضمائرنا ، لو لم تكن شريعة الله تشعرنا توّاً بنواهيها الصارمة ؟ قال الدكتور الكسي كاريل : « ان صوت الضمير ليخبو بعد صوت الله بفترة وجيزة » . كذلك شأن هذه القيم : تتلاشى واحدة تلو واحدة .

ولئن كانت المانيا النازية ، على الرغم مما أُوتيت من عبقرية وجبروت ، لئن كانت باسم المصلحة العليا ، باسم العلم ، باسم استصلاح النسل ، باسم مستقبل العرق ، قد انساقت الى ابشع الضلالات ، الى الآثام التي لا تُغتفر ، فلأن مقياس القيم فيها أمسى غير مقياس الأمس . وثمة انظمة دكتاتورية كشفت عن مظالم لا تقلّ عن مظالم الالمان ، ولكن في قطاعات أخر ، فأزرت بشخصية الانسان ، وأزرت بقيمة النفس اللامحدودة ، وأزرت بالخلاص الفردي . بحيث يمكن ، في مفهومها ، بل يجب ان يضحّى بكل شيء في سبيل مسخ يدعى الدولة ، أو يدعى الحزب ، في سبيل وهم باطل لا روح له، يحوّلنا الى مثل التراب، ولا تستوقفه لحظةً بهاءات مصيرنا ومواعيده ، وهي بهاءات

ومواعيد إن تنازلنا ونظرناها، لتبدّت لأبصارنا تبدّي شقاءاتنا وكآبات وضعنا البشري .

ان « الانخذال النفسي » ، هذه الكلمة المفجعة التي ساقتها الى الناس فلسفة معاصرة تقول بخذل البشرية خذلاً مريعاً وتركها بلا معين ، على كوكب يكاد لا يُرى ، في فضاء لا تحدّه حدود ، إن هذه الكلمة تترجّع في الصدر ترجّع النعي. انها لأشبه بدعوة المرء الى القتل ، قتل الذات وقتل السِوى . فأية قيمة من قيم الاشعاع ، من قيم الموسيقى ، او الشعر ، او الجمالية ، تصمد حتى النهاية بوجه هذه الكلمة اليائسة ؟ وكيف يراد ، في مناخ فلسفات كهذي الفلسفات ، ان لا تتبدد أسمى القيم،وكيف يراد لمجتمع ان ينبعث ويحيا ، وكيف يراد لنهضة ان تزدهر وتدوم ؟

ان مأساة القيم لتعاني اليوم ، وفي شتى انحاء المعمور ، ضيقاً ولا اشدّ ... فالروحانية والمادية تتنازعان الحياة والموت . تلك تقول بمحبة القريب ، بنكران الذات، بالتجرّد ، بالرجاء ، بالحب ، بالخلود ، وبالقيم الأساسية. تقول بكل ذا بكل اللغات. وهذه تقول بالمساواة الاقتصادية ، والمطالبات القصوى، وصراع الطبقات ، والحرب الاجتماعية ، وإسواءِ كل شيء بمختلف الوسائل ، على رجاء عهد ذهبي يطلّ مشبوه المرامي ، ينكر البعث والثواب . وهكذا نرى القيم بين أخذ وردّ ونزاع ، تمجّد هنا او تشنّع هناك ، بمنتهى العنف ومنتهى التضحية .

* * *

بيد ان المستقبل رهن القيم ، القيم الحقّ ، تلك التي سلّمت

الاجيال بصمودها وأهميتها . فنسبيّة الرفاه والترف وما يتوالد عنهما من حاجات مفتعلة ، انما هي نسبيّة ظاهرة عياناً . فكلما أمعنّا في الرفاه وقعنا في المصطنع ، وكلفنا بأمور ثانوية يشقّ علينا افتقادها بعد ذاك . فالرفاه ورخيّ العيش لا ريب انهما من الطيبات . كذلك البذخ الصرف ، فهو يحفل بالمفاتن . لكنّ هذا لا ينفي أن القيمة الخالصة يجمل ان تكون في نـَعمة النفس والقلب ، اكثر منها في نـِعمة التملك ، وان تكن خصوصاً في رجاء ، أعظم به من رجاء .

وكم يجدر بالمستقبل ان ينحو ، إن في سعيه وإن في العمل ، نحواً نسبيّ التجرّد نبيلًا ، تمهّد سبله تنشئة توجهها الروح ، وتأخذ الدولة بيده اخذاً واعياً ، فطناً ، انسانياً ، مثالياً قدر الامكان ، ويسدد خطاه تفهّم افضل للقيم الخلقية والجمالية . والمستقبل الحق رهن بذاك الصفاء الذي يحدونا على تمني الحقيقة والجمال والهناء لبني البشر اجمعين . ان عصرنا يشكو الأثرة اكثر ما يشكو . لكننا عصرنا ينهج في شكواه نهجاً فظاً ، وينقاد انقياداً أعمى الى الشطط . وهو ، حيال مسالب الطموح ، يستسلم حانقاً لآفة الحسد ، لتلك العلة التي تضنّ بالسعادة على الآخرين . والمستقبل رهن بتناغم القيم ما بينها ، ورهن بتوازنها توازناً يضع كل شيء في مصفّه ، ويضع الخيرات التي تسمو بالنفس قدّام التي يتأكلها الصدأ والدود . ولعمرالله ان عالماً تعوزه القيم الخلقية لهو عالم مسخ ، كائنةً ما كانت روعته .

***

ولنرَ الآن ، قدر المستطاع ، ما هي قيم هذا البلد وما نرتجي ان تكون .

القيم الاقتصادية يعرفونها عندنا خير المعرفة . وما كان منها قيماً وهميّة تلقى عقباها هنا . فكلٌ يناقشها وكلّ يعدمها قيمتها ويرذلها ، رغم الاوهام ورغم القوانين . ولنلاحظ ، للمناسبة ، ان القوانين عندنا ليس لها في الغالب سوى قيمة نسبية . ممّا يحدونا ان نسائل النفس ، وبمنتهى الصراحة يجب ان نسائلها ، أي قسم من شرائعنا يعاني انخفاض القيمة اكثر من سواه . ذلك يعود الى فوضى شبه وراثية ، ولكنها تستدعي ردّة لا تحتمل الانتظار .

ما من بلد يقدّر الاشياء المادية تقديراً دقيقاً واثقاً مثلما نقدرها نحن في لبنان . نستثني الفنون ، حيث اللبنانيون الثقات ما زالوا قلّة . فاللبناني يعرف كيف يشتري وكيف يبيع . لكننا قلّما يفقه اهمية الصنيع المتكامل ، وما تتطلّبه الجزئيات من عناية وانتباه ، وما يضفيه التجويد على الذوق ، وما يكسب الاشياء قيمتها ، الى حد بعيد ، وما يجعلنا الى حد بعيد نشغف بالاشياء . كل ذلك عرفه أسلافنا الألى خيراً منا . وعلى شاطئنا الفينيقي ، قديماً ، كان صنيع الجوهري والصائغ والنحّات ، في الحجر ، في المرمر ، في البرنز ، يتفوّق ايمّا تفوق ، في ارهافه ودقة صوغه ، على خشن أعمالنا اليوم . فكل ما نصنعه اليوم نصنعه على وجه التقريب . كل شيء عندنا تقريبيّ وبينَ بينَ ودون المستوى المنشود .

ولعلّنا بحكم ازدهائنا ، أو لأننا سطحيون اكثر ممّا يجوز ، نبدي اهتماماً بالغاً بالواجهة من كل شيء، بواجهة هي على كل حال مسكينة الهندسة والذوق. وكم نشكو جهلًا لكل ما يؤلّف الجمال المتناغم في داخلة البيوت المتناهية البساطة ، ممّا يسمو بالأمة والمجتمع الى ما فوق المستوى العادي ، الى مستوى حضاريّ رفيع. بيد اننا نسجّل في هذا القطاع من حياتنا المادية ، ونعْمَ ما نسجّل ، تقدماً جدّياً بانت طلائعه منذ بضع سنوات . ثمة جهد ولا شك ، جهد يتضاعف ، وعليه يشهد البيت اللبناني في بعض مجاليه .

ثم اننا غالباً ما نقترف بحق الروح تلك الخطيئة التي لا تتورّع عن قدر الانسان بحسب ما له ، لا بحسب سجاياه . وهذا تالله انحراف خطير ، إن ينمّ على شيء فعلى تنكّر لأسمى القيم وامتهان لها لا معذرة فيه .

فللمال أهمية كبرى، عندنا — عنيت المال على صعيد الحيازة، وليس على المجنى الخيِّر الذي يُجنى منه — واني لأتمنّى، وكلنا نتمنى، أن يتوافر المال في خدمة الحق والخير والجمال ، في خدمة التربية والتعليم ، في خدمة العلوم والفنون ، في خدمة الصحة جسداً وخلقاً، في خدمة ما لا يحصى من الضرورات البشرية والاجتماعية التي يحتّمها العالم الجديد. ولكن حذار أن يسهم المال ويفرط في تحديد الانسان عندنا . ولنتذكّر أن المال لا يجلب العلى الاّ بنسبة ما ينهد، حلالاً زلالاً، لخدمة مثل أعلى ، وبنسبة ما يأبى الإسهام في بلبلة الضمائر أو في إبطال فعاليتها .

امّا اذا لم نبدِ اهتماماً وفياً بتطور الأفكار والأخلاق ، واذا نحن أشرعنا ابوابنا للخيرات المادية دونما تمييز ، فقد تودي القيم الاقتصادية، عندنا، بالقيم الروحية. نظرة الى الخطر المحدق بنا، كم هو واقعي : ها هي فلسطين تقاسي من المحنة أشدّها ، لأنها تركت صاحب الأرض يضع قيمة الأرض فوق قيمة الوطن .

ان لبنان واقع على مفترق تنجذب اليه، مع القيم الروحية ، مشروعات زمنية تعود بالمكاسب وتعود بالخسران. ففي ظهرانينا وحولنا جاذبية عارمة واغواء. ولعلّما آن أوان التذكر أن خيرات هذا العالم اذا كانت جميعها ذات قيمة ، فجميعها ليست برسم البيع. بل ان منها ما وجب ان يكون خارج التداول، لخير الشعب كله، لخدمة الكل، لخلاص الكل .

فبلدنا هذا (ومثلنا بعض الجيران) كان وما زال محفوفاً بالأخطار. وهو مدعوّ، حاضراً ومستقبلاً، الى ان يلبث كذلك، تحيق بـه التجاريب والاطماع . وبقدر ما نحن نؤثر السهولات والميسورات التجارية، مثلاً، على الحرّيات الشرعية، على الحريات الأس، بقدر ذلك نلقى ذاتنا على شفا الهوة. فاحرِ بتجار بيروت وباعتها ، أحرِ بالصناعيين وبكل من يسهم في ازدهار هذه الحاضرة، أحرِ بهم جميعاً ان ينعموا النظر في هذا الأمر . وحينما نتوصل الى التوفيق بين كل المصالح، دون ان نضحّي بالجوهري منها، حينذاك يمسي كل شيء على خير ما يرام. بيد ان القيم المادية لا يمكن ان تكون بالنسبة الينا كما هي مثلاً في اميركا بالنسبة الى مواطن اميركي لا يقلقه أحد أو يقضّ مضجعه. لذلك بات لزاماً

علينا ان نعنى بمنعة هذا البلد، منعته الخلقية وقدرته على الاحتمال، وامكانات الصمود فيه، أكثر من عنايتنا بالماديّ من خيراته .

ولا نسهونّ ان القيم تتحول تبعاً لظروف الزمان والمكان .

وحسبنا برهان جليّ على ذلك جمهورية السان مارين : اثنا عشر الف نسمة يعيشون على صخرة في قلب ايطاليا وينعمون بالاستقلال منذ أجيال. وفي الاستقلال أنِسوا نعمة لا فوق فوقها. ولكانت صعابهم تتضاءل ، والآفاق تتراحب بهم ، لو انهم اندمجوا في ايطاليا ، وهي البلد الكبير الجميل . لكنهم آثروا حريتهم على كل ذا .

وعلينا، لكي نعمّر لبنان، لبنان الحاضر والآتي، هذا اللبنان الذي تسنّى له ، بفضل ظروف ميمونة وبعد مديد انطواء ، ان يتطور بسرعة لم تكن في الحسبان ؛ ولكي نصنع صنيعاً يبقى (ولكي يتولّى العقل زمام المطارحة ومع العقل أسمى القيم) علينا ان نضمن ان ما يتحلّى به هذا البلد من خلق ومن طاقات عليا لن يتراخى في مطلق حال. ندرك إذن ان المسألة هي قطعاً مسألة تربية واخلاق ، وان ما بات واجباً كل الوجوب ، دون ان نتخلى عن الدماثة واللين ، وعما تتصف به الحياة اللبنانية من طواعية قصوى ، ان نعزّز فينا صلابة الشخصية والطباع ، اذ لسنا بالتأكيد من المجلّين في هذا المجال، فلِمَ لا نعترف بذنبنا ؟ ولئن نكن في حاجة لتجارة مزدهرة وصناعة ناهضة وحياة زراعية منوّرة (والاخطار اقلّها في القطاع الزراعي)، ولئن نكن في حاجة لتجار وصناعيين ورجالات أعمال واموال من

الرعيل الاول ، فشدّ ما نحن بحاجة الى مواطنين ! وليكن لكل منا في ما يجري بفلسطين عظة وعبرة .

فاذا لبنان لم يبادر الى صنع جماعات تلو جماعات من المواطنين فقد يمسي على التمادي مهدداً . وهذا ما يثبته التاريخ برمّته عبر أربعة آلاف عام من حياتنا السياسية والاجتماعية. وتكاد تكون هذه حال جيراننا . أضف الى جمّ المخاطر المتوارثة جوار اسرائيل وما يثيره هذا الجوار من خشية . اذ لن تتناهى الينا من هذا الجار موسيقى عذبة وحسب ، بل محاولة للسيطرة يتعهدها ابعد المفكرين بصيرة ، واشد النظم حزماً ، واكثر وسائل النفوذ تنوعاً وفعالية .

ولبنان اذ يوطّد مكاسبه ليوطدها بتمييز بين القيم فردي وجماعي ، وبرجوع الى مراتبها المفقودة ظاهراً. ويجدر بلبنان ، في الدرجة الاولى ، ان يكون موجّهاً نحو هذه الوجهة وان يداوم ، شأنه شأن البوصلة تشير ابداً الى الشمال . ويجدر به ، في الدرجة الثانية، ان يقلل من تثبيطه للعزائم الخيّرة في الدولة او ان يكثر من استنهاضها . ولا يتأتى هذا الترتيب وهذا الاستنهاض عادة الا على يد حكومات تستهدف أول ما تستهدف تنمية القيم الخلقية والروحية ، ورذل الموهنات بالتالي ، وما يفلّ عزيمة شعب دعاه القدر الى المقاومة في معظم الاحيان.

ومن بين القيم السياسية الاكثر حظوة في ايامنا هذه، يستأثر عامل «الزمن» بتقدير فريد . وكثيراً ما اعتبرنا الزمن ذلك

الرجل الشهم الذي ينبري احياناً لتسوية الاوضاع المرتبكة . أمّا أن يُترك للزمن توجيه الادارة تقنياً ومعنوياً، وتوجيه الأمة خلقياً واجتماعياً ، فذلك لن يكون بلا محاذير. لأن هذا التوجيه ينبغي ان يصدر عن اعمال إيجابية يتولاها على التوالي كل من الحكومة وممثلي الدولة .

ولكن فليكن لنا الآن عود على بدء توخياً للخاتمة .

القيم الاقتصادية هي ، عندنا ، من القيم المعروفة على مدى وسيع ، ومن اشدها عافية. لكن بعضها اليوم تهدده الاخطار، مع أن بعضها هذا ليس من أقلها شأناً . فعلى الصعيد الاقتصادي وهو صعيد يفضي حتماً الى السياسة ، تشكّل مجاورة اسرائيل خطراً لا يستهان به . اذ ان قوة كهذه لا يمكن ان تنمو الى جانبنا دون ان تشد الخناق على اعضائنا الرئيسية ، ودون ان تحدّ من وسائل عيشنا . وقد يقودنا تطور القضية الفلسطينية الى إعادة النظر في الكثير من قيمنا الاقتصادية .

اما القيم المنطقية ، وهي تتناول قسماً كبيراً من المعارف والعلوم ، فنحن مدينون بها ، خلال الثمانين سنة الماضية ، للتعليم الأجنبي الذي نشدناه والتمسناه واشرعنا له صدورنا . وتضم هذه القيم علوم الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والبيولوجية والرياضيات الخ... من هنا نستطيع ان نقتاس أهمية هذه المعارف، ونستطيع كذلك ان نقتاس ما يسوغ لنا ان ندّعيه منها. فنحن في منأى عن عواصم العلم . لكن لنا امكانات المستقبل الزاهر . فإن صمّمنا على ابتناء هذا المستقبل ، كان علينا ان نفسح في

مجالات البحث والمختبر على السواء ، وان ننمي قيماً تضمن القوة والمكانة والنفوذ، فضلاً عمّا توفره من ثراء فكري ومادي. هذه القيم هي أحد أسباب التمدين الرئيسية ، شريطة ان تخضع لرقابة النهى والاخلاق . أليس من تفكيك الذرة ، مثله من شجرة العلم ، يتأتّى الخير والشر معاً ؟

وعلى ذكر القيم الجمالية أتينا عرضاً . لكننا لا يسعنا القول انها ، عندنا ، في وضع تُغبط عليه . فالرسم والنحت والهندسة والموسيقى والفنون الجميلة إجمالاً ، وبعضها كان بديعاً منذ ألفي عام ، هي اليوم شيء يسير ، ما خلا بعض التألقات . لكنّ ما يدعو الى الاغتباط ان هذه الفنون ما زالت قيد الحياة ، أو عادت اليها الحياة من جديد . فثمة مواهب تتفتّح وبها يخضل الأمل. أما حسبنا بشاعات ومؤلفات ممسوخة وتنكيل بالرصانة والذوق ! أما حسبنا ضلالات آثمة ! فها قد أمسينا ولا سبيل لنا الى معايشة الجمال الا بالتماس طبيعة أوتيناها رائعة، وبنبش الآثار القديمة من ارض لنا وقور . ولا يسعنا الا ان نلاحظ ، وبأسى نلاحظ ، ان من يعتسف الطبيعة ، عندنا، لهو الانسان بالذات. فهو الذي يشوّه المنظر ، وهو الذي يعرّي الاشجار من اغصانها، وهو الذي يسوّغ موت النبت الطريء، وهو الذي يسد الطريق، ويسدّ معه مرامي الأفق ، بمبنى ولا أبشع منه. ولئن يكن ذلك في تضاؤل ملحوظ ، فإنما لا يفتأ ، رغم تضاؤله ، مؤسفاً حقاً . وعلينا ضناً بالقيم ان نبرأ من هذا الداء .

اما بصدد القيم الخلقية والاخلاقيات اجمالاً، فلنقل انها تراوح بين الفلسفة والسياسة .

لا ريب أننا ، في لبنان ، ننعم بقيم خلقية وفضائل فردية وجماعية سامية . فثمة تقاليد جدّ نبيلة ، وثمة إخلاص للأمة ، للأرض، للماضي، حريّ بالاعتبار. وثمة شعور بالتضامن الانساني عميق . نعم ، عندنا هذا كله ، ولكن في درجات متفاوتة ، ناهيك بما في هذا كله من ثلمات . ثلمات تعزى اولاً ، وبكل انصاف ، الى عصر ينتهك كل شيء ، وتؤججه الغرائز المنحرفة والشهوات ، كما لم تؤجج عصراً مضى . وما الحمق الا ان نماشي التيّار ، بدلاً من ان نغالبه . ولكم ينبغي وضع القيم الخلقية في طليعة ما يؤلف قوام الدولة وحكومتها وادارتها وتمثيلها القومي. بذلك تكون للشعب قدوة صالحة، بدلاً من ان تساوره الشكوك كما هي الحال غالباً ، وبذلك يكون الانضباط والخلاص اذا ما هبّت ريح عاتية . ونحن اذ نتوقف على هذه الضرورة ، فباسم الاخلاق، باسم القيم الخلقية نتوقف ونستوقف، سائلين ان توضع القيم في مصافّها ، او الى مصافّها تعاد .

لأن الحظوة والزلفى قد جاوزتا كل حد. لا لأن علم الاخلاق يعوزنا تعليمه. فالخطب والتعاليم لا يكون بها كفي . ورب مثل قضى على قاعدة .

ان التنشئة الخلقية تندمج في النهاية بتنشئة الطبع. فما تجدينا معرفة الشريعة اذا نحن لم نتعلم احترامها ؟ ان الروح الوطنيـة

والضمير المهني ان هما الاّ حصيلة التنشئة والقدوة .

* * *

ونحن اذا تناولنا بالتحليل كل ما يدعو ، عندنا ، الى النقد والملامة، لوجدنا على وجه العموم خرقاً فاضحاً للقانون . حين ان القانون هو الذي ينظم الموجبات والعوائد ، وهو الذي يصون الحريات والحقوق . إذَن فالذنب ذنب البشر .

فتعدّد المخالفات ، وتعدّدها بلا عقاب ، من شأنه ان يبطل الأنظمة والشرائع . وبما ان الحياة ملأى بهذه الشوائب ، لذلك يتحتم التشديد على القيم الخلقية بنوع أخص. فضلاً عن أن تطبيق القانون تطبيقاً منحرفاً يولّد تلقائياً نوعاً من الحظوة والاحتكار لصالح من لا يحسب للقانون حساباً .

وهكذا بات علينا في هذه البلاد ان نعتبر الأنظمة والقوانين في عداد القيم السايبة . وهذه لعمري الخطورة بعينها ، حيث وجب على كل مواطن، وعلى المشترع أولاً ، ان يتحلى بالشجاعة الكافية لاقتياس اخطائه. ولعلّ شغفنا بالحريات هو الذي يجعلنا نعلّل الوضع بهكذا وضوح ، بل قل شغفنا بهذا الوطن الذي يستأهل ان يتعلّم بنوه جميعاً، لا نخبته فحسب ، كيف يحققون شخصيتهم في دأب دائب لازدهار الكرامة الانسانية .

بيد ان القيم الروحية والدينية ما زالت ، عندنا ، خير ما يبلسم القلوب. فلقد عرف اللبناني كيف يلبث في الطبقات العلى، وما تخلّى قط عن كل ما هو قدّوس أزلي . فالروح السمحة هي

التي أقامت لبنان البدء ، والروح السمحة هي التي توطّد لبنـان اليوم ، لا بـل هي حرية الضمير في الاخوة ، لا بل هي الحريات الشرعية بالذات . الا فلنعترف جهـاراً ان ذلك كله من منَن الروح. ونحن اذ ندعو الآن الى الاصلاحات الاجتماعية ، والى ما يمليه الوضع البشري من تقـدّم اجتماعي ، واذ ندعو اخيراً الى القيم ، وهي الى حد بعيد قوام الكرامة الانسانية،فانما عن طريق القلب والروح ندعو .

واكثر فأكثر يجمل ببلادنا،في هذا المجال،أن تكون القدوة، وان تفترع السبيل، وأن لا تنصاع للغير في ما يعمل ، وان تنشد التطوّر، أخذاً بتنوّع العنصر البشري فيها. ذلك بتقويم الخصائل السياسية والاجتماعية، وبتعويد الانسان ان يحترم الانسان، وان يحترم المواطن رأي المواطن .

ولعمر الله ان مهمتنا عظيمة وتبعاتنا جسام . فالأمم جمعاء ، من عربية وسواهـا ، لم تضنّ علينا برحيب التفهم والعطف . والحياة الدولية طالعتنا بظروف مؤاتية،مثمرة. والقيم الروحية والفكرية أسدت الينا جلى الخدمات . وبلادنا، في الخارج، توثر بالحب والحرمة ، على الرغم من حيّزها الصغـير . فواجبنا نحو أنفسنا (ونحو الانسانية كذلك) ألاّ نألو جهداً في سبيل القيم الروحية والانسانية وإحلالها المحل الرفيع . ان نوايانا صادقة ورسالتنا لا يعتريها غموض . وما دور لبنان الاّ ان يستطلع مطالع القيم ، وان يستخلص منها كنهها والحياة . وما واجبنا الاّ ان نسمو الى مستوى مصير كبير ، أكان ذلك في الأخلاق ،

ام في الثقافة ، ام المعارف الانسانية، أم العلوم ، أم الالمعية ، أم الاعمال . وعلينا كي نبلغ ذاك المستوى أن نوفـّق بين مبادئنا وفعالنا، وأن نحل في بيتنا النظام والترتيب .

فمستقبلنا وقف على معرفة القيم ومراتبها . ولا عذر لنا اذا نحن ضللنا سويّ السبيل .

٧ حزيران ١٩٤٨

عالم اليوم

سيداتي، سادتي ،

عالم اليوم ، كيف يراه كل منا ؟ .. هذي مسألة لا متناهية الحدود، واحدة من تلك المسائل التي تنتزعنا من عاداتنا ومألوف هواجسنا، لتضعنا فوراً امام الهوّة .

علينا ان نبذل الجهد لرؤية الأرض بقاراتها وأممها ، لا كما قد نراها من النجم الأبرق ، بل كما نشاهد البدر في ليلة صيف، أو كما ندير بالأنملة خريطة العالم .

اذّاك يتأتى لمنظورنا بعض التباعد ، ويتوثّق حكمنا على الناس والاشياء، على الحاضر والمستقبل، في نجوة من نوازع الهوى.

عالم اليوم هو ذاته عالم الأمس وعالم كل آن . وهو الى ذلك يختلف عن الأمس، وحتى عن الأمس القريب ! وكما يبدّل الشجر قشوره، وتتحوّل سيمة بعض الحيوانات، كذلك الأرض بدورها تتبدّل، ويتبدّل على سطحها كل حيّ . كل شيء عرضة للتغيير : الأفكار والعادات والأمم ومفهوم الحياة ، وموقفنا حيال كل شيء فانٍ وحيال كل شيء لا يعروه فناء .

انّـى لنا خوض موضوع كهذا ، دون أن ينتابنـا بعض من جزع الى بعض شعر وخيال . لكنّ هذا الموضوع ، تراني حقاً اخترته لكم ؟ لقد راودني من تلقائـه ، اذ كان يقتضيني عنوان لمحاضرة وعدت بها « الندوة » . ومن الحكمـة في حال كهذه الحال أن نرخي للنفس عنانها ، وان نترك النوافذ مشرعة قدر المستطاع .

وفي ما كان يواجهني من لـَبس اذ ّاك ، كان الأفق الأرحب، كانت المادة الأوفر هي التي تناسب. فلماذا الاقتصار، لماذا الوقوف عند الجزئيات ساعة يكون في وسعك، في ذا المساء أو ذاك، ان تضع الأرض كلها قِبلة ناظريك ؟

ان زمن التخصص لمقبل على مغرباته، رغم الظواهر . هوذا مفترق النظرات العامة والنهج التأليفي،ودور التشوّفات النبيلة. ولن يفضي تعقّد العلوم الا الى التبسيط المحتوم . فها هي ثلاثة أرباع ما تختزنه مكتباتنا من اطروحات ومؤلفات قـد دالت وبطلت بفعل الأبحاث والاكتشافات . وان مئات الآلاف من الكتب، وقد كان لها شأنها في ما مضى ، باتت اليوم بلا شأن، وباتت اقل قدراً من تفسير الأحلام .

والعلماء، بمختلف حقول اختصاصهم ، أخذوا يدانون النقطة التي يلتقي عندها كل شيء. فالرياضي والفيزيائي والكيميائي وعالم الطبيعة والأحياء تراهم في حوار موصول في ما بينهم ، ومـع الفيلسوف والشاعر على السواء . ذلـك ان الحاجة تـدعو الى

استخلاص نتيجة لكل الجهود،ولم يبقَ في المكنة الاكتفاء بمظهر واحد من مظاهر العالم . فالواقع ان الزمن قصير . ولعـل من الأصح القول إنه يكرّ سراعاً ،بحيث يجب قدر المستطاع معاينة كل شيء وقول كل شيء في آن معاً .

فهل يمكن والحالة هذه وضـع تصميم دقيق ؟.. ان التصميم لممكن دوماً .لكن ماذا يجدي الارتهان به؟ان تصميماً كهذا قد يجاوز المحاضرة بطوله فيختلط بها .

أحرِ بنا إذَن ان نقول الأهم في ساعة، ان نقول ما يتبادر الى الذهن ، ومـا نؤتى قوله . ووكدنا الأوحـد ان لا نتعمد انحرافاً عن الحق .

عالم اليوم مـا هو بالنسبة للانسان المدرك ؟ ليكاد يكون بالنسبة اليه ذاك الذي هو بالنسبة الى طفـل تنبلج عيناه على المعرفة . شيء أشبه برحلة «أليس» الى بـلاد الاعاجيب . فهذه السعة اللامحدودة ، وهذه الكواكب التي تتسارع، وهذه الكرة التي تدور ونحن عليها جاثمون . هذه الجمهوريات وهذه الممالك . هذا النظام وهذا الخلل وهذه الفوضى. هذا السناء وهذا الجنون وهذا الرجاء، ان هي كلها الا البيئة التي يتبيأها الانسان.بيد ان هذا المقرّ مقرّنا ، كيف لنا طلوع منه إلاّ بالروح ؟ سجنٌ هو نوعاً . لكنه سجن مشرع على الفضاء بشكل عجب ! مقرّ ـ سراب وعابر ، لكنه ما اكثر مفاتنه . كتلة ألغاز مذهلة ، الى واقع مستبعد التصديق : الانسان ، الانسان الجازع على مصيره ،

الانسان الهاجس قبالة السماء .

عالم اليوم هذا ، كم يختلف عن المنطلق البعيد، يوم كان «روح الله يرفّ على وجه المياه». هذا العالم القلِق النهِم ، هذي النتيجة الناتجة من تفكيرات جمّة وجمّة أحداث ، بل الحصيلة الموقتة لسير في الزمان لا حدّ له ، فلنحاول ان نستبين ماهيته اليوم .

الحياة تخفق على الارض منذ مليار سنة على الأقل . ونقطة الدم التي تجري في عروقنا قد يكون هذا عمرها . والانسان ، ذاك الأثر الحيّ القديم الجديد، أين هو من التقصّيات التي تستهدف أصله الطبيعي بالذات ؟

لم يتهيأ للعلم حتى الآن قول فصل في هذا الموضوع الاساسي. وليس هناك سوى محتملات كبرى . اني اؤمن بكل بساطة ، وبكل حزم اؤمن ، وآمل انكم تؤمنون ، ان كلاً منا روحه من خلق الله المباشر ، وان مجد الله لساطع فيها اكثر ممّا يسطع في سائر الخلق المرئي . فهي التي تجعل من الانسان ما هو : الهاً في القدرة. انها تجعله صورة الله بالذات . وهي التي تفسّر وتبرّر القول الرائع الذي يقوله برغسون عن الارض : آلة هي لصنع الآلهة .

اما على الصعيد المادي والجسداني فلربما يكون انطوى على الحياة الأولى زمن لا يطاله عدّ . وانا وانتم ، معشر الاحياء المنبثقين عن حيوات خمدت ، لمتحدّرون من منابع الماضي بالذات .

عالم اليوم ها هوذا: ربيع هرِم ايمّا هرم، وصيف تداوله من الحصائد ما لا يطاله وصف ، فخريف وشتاء هما بشائر الانتصار على الموت ورجاء القيامة والدليل الأسنى على عودة الربيع .

وتدور الارض اللامتناهية الصغر في مجموعة كواكب سيّارة، هي مع شمسنا ذرة غبار ، هي شيء لا محسوس في المجرّة، في أم السماء ، كما تدعى حفنات النجوم الصغار. ونحن اليوم نعلم ان في هذي المجرّة التي تتألق في سماء آب من الشرق الى الجنوب، والتي نحن بعضها (ولم يكن ذلك ليخيّل حتى عهد قريب) ، ان فيها مئة مليار نجمة على الأقل. ونعلم كذلك انها وحدها تتناهى على مدى مئة الف عام ضوئي . ونحن نعرف ما هي سرعة النور .

ولنذكر اخيراً، لا لشيء الا لنعطى فكرة أدق عن ضآلتنا، ان المجرة برمّتها، مجرتنا، تلك التي أرضنا منها ذرة غبار، ليست، الى ما هي عليه من لا حدّ، سوى واحدة من خمسمئة مليون مجرّة يكتشفها مجهر جبار ، أو تسجلها عدسة مصوّر ؛ وان في هذا الكون الآخذ بالانبساط ما يدعو الى الاعتقاد بوجود ما يوازي الف مرة هذا المقدار ، عنيت خمس او ست مئة مليار مجرّة ، بين الواحدة والأخرى امداء لا يتخيّلها خيال . شيء مذهل حقاً . وقل بعد ذا ان هذه القبّة الزرقاء ، هذه القبّة التي تثير الدوار، سوف تبجّ يوماً .

هذا ما لا يسوغ جهله في عالم اليوم. اذ ان المفاجأة قد جاوزت كل مرتقب . ثم ان العزم على اقتباس السماء قد يودي بعقل

الانسان ، إن هو لم يتحلّ بالاتضاع الوافي كي يضيف الى المعرفة فعل إيمان . أمور كهذه وحده الفكر يجابهها ، شرط أن يدرك حدوده . ولو ان الناس جميعاً يتأملون في ذلك ، لتضاءلت المعضلات والمعقّدات وجوامح الشهوات في بشريتنا الحيرى ، ولبتنا ازاء الخيرات الفانية والمكاسب الفاسدة، المحصلة شرعاً أو بلا شرع ، أقل جشعاً منا ازاء المعرفة والمحبة .

غير اننا لن نهيم في لانهاية المجرّات، حيث يكفي، كي ننتبه، غفلة منا أو ساعة حلم . علينا ان نلبث على الأرض ، كي نستبين أين نحن منها وماذا يجري عليها في منتصف هذا القرن .

***

لبضع سنوات خلت كانت أمداء من الارض وأمداء لا تبرح طي المجهول . ويوم كنت فتياً كانت اسماء الروّاد الناشطين والرحالة الذائعي الصيت تترجّع في سمعي ، وكانت سيَر اكتشافاتهم ومآثرهم تضفي جاذبية الأسطورة على شغف التاريخ . مذ ذاك فقدَ الرائد، أو كاد، مبرّرات وجوده، وخسر الرحّالة هالة البطولة . وان لم يكن الصراع قد لزم حدّه لنفاد المصطرعين، فلقد ألزمه حده نفاد الموضوع . مذّاك جيزت الثلوج البكر أو طيرَ فوقها، وانحسرت مجهولات القطبين ، وأخذت مسحة السرّ في الطبيعة تتلاشى مثل حلم . وفيما كان عالم النجوم ينقشع ويشفّ، كان غزو القارات المغلقة وتبيان مكنوزاتها يجريان دواليك . بقي ولا ريب هنا وهناك صحارى ومتاهات لم تذرعها خطى

انسان ؛ كغربي البرازيل وأوستراليا الوسطى وآسيا واميركا الشمالية . لكن الطائرة في وسعها ان تكشف كل شيء . وستحطّ الطائرة العمودية في غد قريب حيث تروم .

وبعد ما تمّ التعرف الى أديم الأرض ، راح الناس يتوغلون في احشائها ، منهم بحثاً عن المعادن والفحم ، ومنهم بحثاً عما للأرض من أصول . وها نحن الآن امام علم الإحاثة من جهة في ترجّحاته وكبريات عبَره ، ومن جهة أخرى ، امام النفط صنّيع الحرب والسلام ، وامام الاحجار الكريمة والذهب والاورانيوم ، وكل ما يجمع ، جمعاً لا انسانياً في الاغلب، بين الغنى والسلطان .

كما ان ثمة واقعاً لم يقابَل بما يستأهل من مبالاة . ففيما كان سرّ الطبيعة يتوارى والخوارق تندثر ، كانت خرافات الجنّ مهددة بالزوال . ان سحر الحياة هو الذي كان يغيب الى حدّ ما ، فتغيب معه اوهام الأيام الغوابر وحكايا جدّاتنا الملاح . وكان في ذلك مدّخر من الكآباء للانسان المحنّك .

« كان ما كان » : طريقة قصّ بطُلَ وقعها في النفوس . وهذا ما يدعو الى القول ببرارة ، أو بسويداء : لم يبق ثمة أطفال . ومنذ تلك الايام يتهالك الانسان في التنكّر للخوارق تنكراً أحمق ، وهو في مسيس الحاجة اليها . كل ذلك بالأمس كان . وما ابناء جيلي سوى ابناء الفترة الانتقالية . انهم في صميم المأساة . حتى ليخيل أن هناك دهوراً بين طفولتهم وكهولتهم . فما اشبههم

بآباء سفر التكوين .

وفيما كانت السرعة تزداد في اطّراد كانت الارض تتقاصر . وليس في ذلك أي جديد . فالسرعة ، وقد تخطّت طفولتها المديدة بفضل آلة البخار وسكة الحديد ، اتخذت مع المواصلات الجوية سيراً صاعقاً .

وانعدمت المسافات. واستحالت المسيرات الطويلة وإبحارات الأمس ضرباً من المستهجنات . وصار يكفي لقطع المحيطات بضع ساعات طيران . وهذا ما يؤلف ، مع الآيات الأخر التي نعرف ، سلسلة اكتشافات نصف القرن الجاري . سلسلة جهنمية أو سماوية ، تبعاً للزاوية التي ننظر من خلالها . فما اشبه الارض بمصهر « ڤيلكان » . انها تتطاول على رحبات الآلهة . وها هي المكننة تحرز تقدماً لا مثيل له في تاريخ الانسان ، حتى باتت الآلة تتجاسر وتضع نفسها في عون الفكر ،وباتت بعض المكنات تُعتبر اليوم في بعض الحسابات والمباحث عضداً للانسان سريع التلبية وشبه بصير . علم حديث قد بزغ ، علم أخذ يسهم الى حد بعيد ، مع علوم كثيرة سواه، في تيسير أشغالنا .

*
* *

وها هو باختصار بعض ما آلت اليه الحال من رصيد عظيم : أرض غدت مادياً بلا سرّ .وكل شيء فيها تناوله الاستكشاف والتحقق . درجات سرعة تتيح حضوراً شبه فوريّ أنّى كان. انقلاب نزِق في مجمل تقاليد متوارثة ، وفي طريقة تفكير وعيش.

يضاف الى كل ذلك قدومُ مدوٍّ للعصر الذري .

عالم اليوم يشهد انقلاباً فكرياً ومادياً وخلقياً لا مثل مثله منذ عهد الانسان الاول. هكذا تطالعنا مطالع الازمنة الحديثة. اما المستقبل فغنيّ بما لا حدّ له من سناء. بحيث ان البشر والامم يحاولون ، تحت وقع هذه الصدمة المذهلة ، أن يتكيّفوا وفقاً لما يعانون من تطور وجيع .

*
* *

يوم كانت الامبراطورية البريطانية في أوجها ، سنة ١٩٠٠ ، كانت اعظم دولة في العالم . غير أن دولاً أوروبية اخرى ، وفي طليعتها فرنسا ، كان لها وجهها الوضّاء . فبدونها لا يقرّر شيء، ولها في مجموعة الامم دورها الكبير . وظلت أوروبا حتى عام ١٩١٤ وكأنها سيدة العالم . صحيح ان الولايات المتحدة كانت في مصاف كوكب بالغ الاهمية ، لكنها كانت لا تزال بعيدة عمّا صيّرتها إياه الحرب العالمية الاولى.وكانت الدول الملقبة بالدول الاستعمارية تبسط على الارض ظلها . ولسوف يقول الغد المنصف إن جهدها كان في الأغلب بنـّاءً وانسانياً اكثر مما يخال ، وإنها قوبلت بالاجحاف، وإن سائر الارض لولا تدخل اوروبا، النفعي ولا ريب ، لظلّ في معظمه عالماً لا ندحة اليوم عن استعماره . لا يمكن ان تُسأل الأمم تجرداً مطلقاً . وها نحن اليوم نرى محبة الانسانية يشوبها نوع من الانانية المصون . أفليس في معونة « مشروع مارشال » ، على استثنائها ، وجه من وجوه التأمين ؟

وكان من شأن الحرب الروسية اليابانية ، سنة ١٩٠٤ ، أنها صدّعت لأول مرة مكانة طالما نعمت بها اوروبا . اما الحرب العالمية الاولى ، وهي حرب اسهمت في كسبها ، ولو متأخرة ، مؤازرة الاميركيين، فقد هيأت للولايات المتحدة تفوقها. ثم أفضت الحرب العالمية الثانية الى تحالف اوروبا وآسيا ضد آسيا و اوروبا لتنقلب هذه الحرب كارثة على الاثنتين .

وفي اعقاب الحرب العالمية الاولى عملت الشيوعية الماركسية على تقويض روسيا القيصرية ، بعد ما كانت صرحاً منيفاً شبه قدسيّ ، لكنه صرح نخِر . ونشأت مع الماركسية ديانة جديدة مادية ، ثورية ، تنهج سياسياً في العالم نهج افتتاح ، حتى ان احد المعاصرين حدّدها ، ونعمَ التحديد ، بـ« الديانة الدنيويّة ». وفي الحرب الكبرى الثانية تحتّم لقهر المانيا واليابان ان يقوم ذاك التحالف اللاطبيعي، بين الحضارة الغربية وهذه الشيوعية نفسها، وقد اضحت « العالمية الثالثة » ، فاذا بنا نشهد حلفاً بين نقيضين: بين الديمقراطية الكلاسيكية ، في اوروبا واميركا ، وبين الدولة الماركسية التي هدفت، اول ما هدفت ، الى تهديم هذه الديمقراطية بالذات . فرب حاجة ساقت الى اسوإ الضلالات .

وسيسجل التاريخ في الغرب ، بصدد هذا بعينه ، افلاساً في البصيرة ما بعده افلاس . ذلك ان القيّمين على اوروبا الهرِمة أقدموا على التضحية بالسلام العالمي وبمستقبل حضارتهم ، في سبيل قومية ولا اضيق .

بحيث ان الحرب العالمية الثانية ، تلك الحرب المجزرة ، تلك الانقاض ، آلت بشكل يرثى له الى بدء حرب من طراز آخر ، هي أدعى الحروب الى الكراهية على الاطلاق . وها نحن نشهد منذ سنين ، وفي مختلف البلدان ، دبيباً للثورة خفيّاً، بينما نصف العالم مشطور عن نصفه الآخر ، كما تتحقق التجربة الشيوعية في اناء مطبق ، لامتناع تحقيقها في الهواء الطلق .

ان الحرب التي وصفوها بالحرب الباردة ، مع انها من اشدّ الحروب استعاراً، ولا سيما في فصلها الأخير (نعني طبعاً كوريا)، ان هذه الحرب الخبيثة التي تنغّص الاعصاب والمخّ والقلب ، كما تنغّص الانسان في نفسانيّته بالذات، فردياً أو جماعياً ، نراها تبثّ في العالم سمومها ، فتنكّل به اكثر مما نكلت به الحملات المتعاقبة التي شنتها القومية الاشتراكية على يد هتلر. واذا الاديان التي تدين بالإله الخالق وتعترف بواقع قدرته قد تضافرت كلها اليوم تضافراً طبيعياً لتذود عن الروح . واذا هيئة الامم ، في دورتها الحالية ، قد بدأت بالصلاة جلسة الافتتاح .

وليس مدار تلك الحملة العارمة التي يشنها ثلاثمئة مليون نسمة على سائر البشرية ، باسم الماركسية المادية وباسم الفلسفة الاقتصادية البحتة ، وهم على تفاوت اقتناع أو قبول ، ليس مدارها في النتيجة سوى وجود حضارة روحانية او لا وجود .

وهذا الصراع الممضّ هو الذي يملي احكامه على عالم اليوم ، وهو لولبه الأساسي . ولئن كانت الامم تقاوم العنف او تقاسيه

فانما بدافع التناقض الكلي تقاسيه او تقاومه .

ويحضرنا التنويه بأن هناك تبايناً جوهرياً بين المادية الماركسية والنازية الظافرة حتى امس القريب . فليست قضية المدى الحيوي بقضية البلدان التي تأتمر بأوامر الماركسية . فهذه البلدان لا يعوزها المدى الحيوي . وبقطع النظر عن مطمع استعماري راود روسيا الكلاسيكية ، منذ ثلاثة قرون ، فحاولت ان تخترم لها منفذاً الى البحر ، بات المدى الحيوي في نظر الشيوعية سيادة فكرية ومادية على الأرض جمعاء . من هنا المحاولة الدائبة لثورة عالمية تهدف الى خنق كل مقاومة من الداخل. وحسب هذا المذهب تصدّع واحد ، حتى يفتضح التناقض بين نظام ديمقراطي اسميّ ، بين حرّية نظرية بحتة بادت فيها حرية الفرد ، وبين نظام حريات حقيقية ، وفرة رائعة ، كما هي الحال مثلاً في الولايات المتحدة وسويسرا. وهناك تناقض جوهري آخر . وهو ان النازية ، على الرغم ممّا عانته فعلاً من ضيق المدى ، كانت تحرص على حماية ملكية الارض ، تقريباً كما يحرص الانكليز اليوم . حين ان الماركسية المطلقة ، وهي التي تتمتع برحاب اوروبا الغربية وآسيا السيبيرية ، حوّلت هذه الملكية الى شبه لا شيء ، أو لاشتها . وهكذا كان البلد الأضيق ينافح عمّا كان البلد الارحب ينبذه ويلغيه .

* * *

عالم اليوم يطالعنا بتشابك المعضلات التي لا حلّ لها في الظاهر. فلنرَ من هم ، في منتصف القرن العشرين ، أهم ممثلي المغامرة

الأرضية . انهم أمم ومجموعات أمم ، وقوى ملتئمة اكثر منها في انعزال . بل انها الامم التي تنعت بالمتحدة ، وما بينها التفرقة البيّنة تسود . اما القوى المعنوية ، وعلى رأسها السدّة البابوية ، فسوف نستجلي وجهها من خلال الدول الأخر .

أ – الاتحاد السوفياتي ، المنبسط على بعض أوروبا وبعض آسيا ، ومعه الدول الدائرة في مداره ، عنينا ٣٥٠ مليون نسمة . ممّا يشكل ، باستثناء الصين ، سبع سكان الارض ، على وجه التقريب .

ب – الصين الشيوعية ، في آسيا ، صين ماوتسي تنغ ، تجاه حكام الصين الوطنية ، عنينا ٤٥٠ مليون نسمة . وهو اضخم عدد في الأرض لأمة واحدة ، ويناهز خمس البشرية .

ج – في اميركا : ١) – الولايات المتحدة ، وهي الدولة الاولى في العالم ، ويبلغ عدد سكانها ١٥٠ مليون نسمة .

٢) اميركا اللاتينية : ١٢٠ مليون نسمة ، على ما يناهز العشرين دولة ، نزولاً من المكسيك حتى اطراف الشيلي والارجنتين.

د – في اوروبا وسائر القارات المتصلة بها :

١) بريطانيا وممتلكاتها (بما في ذلك الهند) : ٥٠٠ مليون نسمة . أي ما يربي على خمس سكان المعمور .

٢) أوروبا الغربية : فرنسا، ايطاليا ، البنلوكس ، البلدان

السكندينافية الخ... وما يرتبط بها بشكل أو بآخر : ٣٠٠ مليون نسمة تقريباً .

هـ – في الشرق الادنى : بلدان الجامعة العربية، وعددسكانها ٤٠ مليون نسمة. فاسرائيل التي نوليها الشرف فنسمّيها على حدة، ويبلغ عدد سكانها، في فلسطين، من مليون ومئتي الف الى مليون وثلاثمئة الف نسمة. ويبلغ، في العالم، عشرة أضعاف هذا الرقم.

و – وهناك أخيراً زهاء ٤٠٠ مليون نسمة يتقاسمون بقية العالم : افريقيا الشرقية ، جنوب شرقي آسيا وجنوب غربيها ، بما في ذلك اليابان . فاية سخرية للقدر ، واية عبرة للمصير تضع اليابان في هذه الثفالة ، الى حين، بعد ذاك العز والجبروت !

وهذه الكتلة البشرية التي يراوح مجموعها بين مليارين وثلاثمئة مليون نسمة ومليارين واربعمئة مليون لا تشكل في حضن الامم المتحدة سوى معسكرين اثنين (بما هنالك من استثناءات معروفة أو تحفظات معهودة كما يقال)، معسكرين متناحرين بلا هوادة، يخوضان غمار معركة غامضة الأبعاد .

وبعد ، بماذا يتميز أسياد هذا الشطرنج الوسيع ؟ وأي شيء فيهم يثير اهتمامنا ؟ هذا ما سنتطرق له بملحوظات عامة ، موجزة :

يشكّل الاتحاد السوفياتي وما في مداره من دول، (ما عدا الصين) أحد معسكري الأمم المتحدة (والمنفصمة) وهو معسكر الماركسية بتمامها والثورة العالمية . وليس من يجهل ما للاتحاد

السوفياتي من نفوذ ، وليس من لا يقدر قوته أو يفترضها . فهو احدى اهم قوى العالم. وهو في صراع مكشوف مع ما في الأرض من قوى دينية ، ومع الحضارات الروحية المنهل ، ومع حماة الديمقراطيه التقليدية التي تسلسلت من الحريات الكلاسيكية في انكلترا، ومن الثورة الفرنسية بالتالي .

والاتحاد السوفياتي يدأب في انماء تجربة ضخمة خلف ابوابه الموصدة. وكل شيء فيه يجري وراء ما يسمى بالستار الحديدي، ذاك الذي لا حاجز محكم الحراسة مثله على الارض، والذي يتعذر اجتيازه، ما لم يُسنَح بالحياة. ان ازاحة الستار عن هذا المسرح الوارف الذي يحتضن ربع اليابسة واكثر ، سوف يكون بطيئاً قدومه ، بل انه في الواقع مستحيل ، ما دام مستوى الحياة المتوسط في الاتحاد السوفياتي أدنى ممّا هو في البلدان المتحضرة سواه . وما دامت المكابح المنهجة هي القياس .

واذا الاتحاد السوفياتي لم يعمل على تطوير عقيدته فلسوف يعود القهقرى ، ولسوف يقضي على ذاته بالعزلة ، على الرغم ممّا يظلّل من امداء ، بحكم الستار الذي أسدله على ذاته ، وبحكم محدوديّة نفوذه في البحار . ولئن هو أحرز نجاحات باهرة في هذا المضمار أو ذاك ، بما يتوسل به من وسائل دكتاتورية ، فهذا أمر لا مرية فيه . بل نعالن دون تردّد ان ثمة تخطيات كبرى في الاتحاد السوفياتي. لكن بريطانيا، لكن البلدان السكندينافية ، مثلا ، وجمّة بلدان أوروبية أُخر ، لكن اميركا بالأخص قد فاقته، وبوسائل اكثر انسانية . ثم ان الاتحاد السوفياتي في مجمله،

بعد اعوام ثلاثين، لا يمكن مقارنته بما عند الآخرين من « نسق عيش» ،على حدّ قول الاميركيين. ذلك سنداً الى اكثر الشهادات صدقاً ووجاهة. وليست البلدان المتردّية في الحرمان ، حيث حرّيات الحق الطبيعي ما زالت تُعتبر نعمة النعَم ، ليست هذه البلدان هي التي يجب اتخاذها مقياساً للمقارنة ،بل الغرب بأجمعه ، حيث الحرّيات وحقوق الانسان في بحبوحة ،وحيث العيلة ، تلك الخلية الاجتماعية الاولى ،لم يسترقّها رقّ ولا ذوّبها حزب ودولة.

الماركسية الأصلية عالمية في تحديدها. والاتحاد السوفياتي خير دليل. فهو يتصدّى للأرض جمعاء. بحيث انك تلقى في كل مكان ذلك التنظيم المدهش ،يتفاوت في انطوائه وانفتاحه ،وتلقى شبكات الخلايا ، حيث الحياة المتخفيّة ، المنضبطة ، في سبيل الثورة ـ المبدإ ، في سبيل عهد ذهبي مشبوه المرامي بعيد.

اما الماركسية في الحكم فهي محاولة لا سابقة لشمولها ،تتصدّى للماضي بأسره ، وتروم زعزعة العالم من الاساس.

ونحن ، هنا ، على بضع ساعات طيران من هذه الدولة التي كانت تبسط ظلها المديد على الشرق الأوسط ، يوم كانت تعرف باسم روسيا ، روسيا التقليدية المقدسة. اما الآن فلم يبق من ذاك الماضي الجليل سوى أرج البخور والذكريات. ولئن كانت روسيا الأمس بلد الرق المفجع ،فماذا ترانا ننعت روسيا اليوم على الصعيد الانساني الصرف؟ أوَيكون ثمة فرق كبير بين أن يتشيّء المرء للدولة ، أي لحفنة من الناس ، وبين أن يتشيّء لانسان فرد؟

وتحضرنا الاشارة الى ان موسكو قد ساندت اسرائيل بكل قواها. نعني انها ساندت عنصرية دينية متطرفة ، متفقة بذلك ، ولو مرة ، مع الولايات المتحدة.

وتعليل ذلك نلقاه في أن موسكو ، بوقفها هذا ، كانت ترصد العراقيل للآخرين. ناهيك بما كانت تعلـّقه من آمال على بذور الثورة الكامنة في حشا اسرائيل.

اما الصين الشيوعية ، صين ماوتسي تنغ ، فهي تماماً شيء آخر. انها احدى أعرق الحضاراتِ في العالم واكثرها رهافة. أنضرتها نفحات قوم جدد (بمعنى جدّة الفكر) فاذا هي اليوم ، من خلال حميّا الثورة ، تنافح في الحقيقة عمّا أوتيت من تفرّد وشخصية. ولعل ارتباكها ، في الاغلب ، ليس مردّه الا فزعها من اليابان. فاليابان تعني للصينيين ما لم تزل بروسيا تعنيه حتى اليوم للكثر من الفرنسيين.

ولا يبدو ان الصين ستألف ، على مرّ الزمن ، صرامة الأنظمة الماركسية. فالانتاج الضخم المتساوق ، لا يوائم برتابته الصين الأصيلة ، موطن البورسلين والبرونز واليشم ، وموطن المواد النُجُب ، والالوان الفتّانة ، والفن الذي لا يطاله حصر. لذا يسوغ الاعتقاد بأن صين اليوم هيهات ان تمضي بعيداً على غرار موسكو. فهما أشبه بحساسيتين مختلفتين ، مكدونتين الآن ، واعجباه ، بعقيدة واحدة. لكنهما لا تستطيعان الترافق الى أمد غير محدود.

ولعلّما يمكن معارضة جدلية ماوتسي تنـغ ، وهو الذي تقضّه اليوم سياسته بالنسبة « لفناني الصين الجديدة وادبائها » ، لعلّما يمكن معارضتها بفكرة الكاتب المعاصر « لِن يوتانغ »، صاحب المؤلفين الشهيرين «بلادي وشعبي » و «أهمية العيش » . من هـذا المؤلف الأخير ، المتميز بالحكمة والحنكة ، فلنتوقف على بعض الجمل المعبّرة والملاحظات النافذة . فهي من خلال قتَم الحاضر تسلـّط النور على الغد .

يقول لِن يوتانغ : « بعد ما واجهتُ الأدب والفن والفلسفة الصينية ككل ، بتّ على حق اليقـين ان ما يؤلف رسالتهـا وعبرتها المشتركة وموضوعها الأكثر استمراراً وتميزاً وثباتاً ، انما هي عقيدة تقوم على سأم حكيم ، وعلى عميق استمتاع بالحياة» . هذه هي ردّة الصين الأبدية. وفي رأينا ، لو كان على الصين ان تخرج نهائياً من «حكمتها» الألفيّة وأن تبدل نهجها، فليس ذلك ممكناً الا بفعل ايمان ، وليس بفعل انتفاء لكل ما هو روحي . فثمـة اربعمئة وخمسون مليون نسمة يعنيهم هـذا الموقف من الروح .

وممّا يلاحظه يوتانغ، وقد استرعى انتباهه ما ينتاب الغرب من إجهاد عقلي،«ان المجانين، بينما هم في الغرب من الكثرة بحيث يودعون المصحّات، تراهم في الصين من القلـّة بحيث يُكرمون».

ويكتب في مناقشة الماركسية : « ان القضـاء على الغريزة الأبوية قضاءً تاماً يبدو هدف الدولة الماركسية ، اذ تعتبر المحبة

العيليـة والاخلاص ضرباً من المشاعر البورجوازية المدعوة الى الزوال من بيئة مادية تختلف عن سواها . »

واليكم اخيراً قولاً يصلح لصين يوتانغ، كما يصلح لسائر المعمور: « ان اطـّراد التقدم سوف يفضي يوماً ولا شك الى نقطة يكلّ فيها الانسان ، فيبدأ يجرد انتصاراته على العالم المادي». فكيف تتخلى الصين ، وهي التي تضع حضارتها فوق كل حضارة ، كيف تتخلى عن أبّهات ماضيها، بإصرارها على الاستمرار في ما تسلكه من سبيل .

ولا يُحمل الكلام عن عالم اليوم على محمل الصوابية ، اذا هو أغفل تلك الكتلة البشرية التي قامت غليها قبـلاً امبراطورية «الوسط» ، على حدّ ما كان الصينيون يدعون بلادهم حتى زمن قريب . بل ان مستقبـل الأرض جمعاء رهن بمستقبـل الصين واتجاهاتها . ثم ان الشرق الادنى يهمّه الشرق الاوسط اكثر ما يهمّه. فكم نود لو يصبح لبنان اوفى اطـّلاعاً على شؤون الشرق الأقصى وشؤون الصين وسائر المعمور .

ولنعبر المحيط الهادي الى الولايات المتحدة،آية العالم الجديد. فكريستوف كولومب لم يدر في خلده ، سنة ١٤٩٢ ولا في خلد من جاؤوا دواليك في اعقابه واكتشفوا العالم الجديد،ان الولايات المتحدة، تلك الأرض المقفرة آنذاك ، سوف تغدو بعد أربعة قرون في طليعة الدول العظمى ، وان سكانها سوف يبلغون مـا

بلغوه اليوم، وان مواردها بالأخص سوف تمسي على ما أمست عليه .

ففي عام ١٨٥٠ ، يوم كان للاميركيين مساحة ارضهم الحالية على وجه التقريب ، كان عددهم يومذاك ٢٣ مليون نسمة .

وفي عام ١٩٢٠ صاروا ١٠٥ ملايين . وفي عام ١٩٤٠ بلغوا ١٣٠ مليوناً ، على ذمة الصحف منذ حين . اما الآن فيبلغون ١٥٠ مليوناً ، ميزتهم الاساسية تكمن في ان تسعة اعشارهم من أرومة اوروبية ، وان حضارتهم من منهل اوروبي. لكن حفداء اوروبا الهرمة أولاء ، وقد رفدناهم نحن اللبنانيين اخواناً لنا من صلبنا ، بلغوا من النموّ حداً اسبغ عليهم كبر العملاق . وها ان حضارتهم تتخذ طابعاً لوحده في التقدم المادي، بحيث صار علينا ان نتكلم اكثر فاكثر عن «حضارة اميركية» . وظلت انكلترا بالنسبة اليهم ، بفضل اللغة خصوصاً ، ظلت مثل اسبانيا «والاسبانيداد» بالنسبة لأميركا اللاتينية . الا ان الشعور البنوي آخذ في التضاؤل ، بل أخذ اخيراً يتّسم بسمات الحماية . (على الرغم من تلك الحرمة التي يكنها الاميركيون لدائرة المعارف البريطانية وشكسبير) .

ونرى الولايات المتحدة تغمر المعمور بظلها قبالة الاتحاد السوفياتي . بل يمكن القول ان معجزات العلم الميكاني قد ألقت بين يديها مقاليد العالم . وهيهات ان تحصى الامكانات المادية التي تتوافر لها اليوم . واليكم بعض الاسطر من تحقيق صحفي لو'لف،

مراسل « لا نوفيل غازيت » الصادرة في زوريخ ، كتبه تحت عنوان « الولايات المتحدة طليعة دول العالم اقتصادياً » ، فلعل هذه الاسطر التي انتقيتها لكم ترسم صورة عن الحالة :

« الولايات المتحدة الاميركية هي اغنى دول العالم . وعلى الرغم من ان سكانها لا يتجاوزون الستة بالمئة من سكان العالم تقريباً ، فانهم يسهمون بنسبة الثلث في مجمل الانتاج العالمي » . أي انهم «حائزون للثلث من مجمل ما ينتجه العالم في غضون عام، وان في مكنتهم ان يتصرفوا بهذا الثلث استجابة لحاجاتهم المادية». — « يستنتج من ذلك ان في وسع كل مواطن اميركي ان يستهلك ثمانية اضعاف ما يستهلكه كلّ من سكان العالم الآخرين » ، وهذا بمعدل وسطي .

واليكم ارقاماً أخرى :

« ارتفع متوسط الدخل الحقيقي لكل فرد من ٨٥٩ دولاراً في عام ١٩٣٩ الى ١٢٠٩ دولارات في عام ١٩٤٨ . وبتعبير آخر ينعم الشعب الاميركي اليوم بقدر سنوي من المنافع يزيد ٥٠ ٪ على ما كان ينعم به منذ عشر سنوات ».

وبحسب احصاءات « مكتب الاقتصاد الزراعي » ارتفع استهلاك كل مواطن للّحم ، في السنة ، من ٥٨ كيلو الى ٦٩ كيلو (مع حذف الكسور) كما ارتفع استهلاكه للحليب من ١٥٩ ليتراً الى ١٩٣ ليتراً ، وللبيض من ٣٢٩ الى ٣٧٤ بيضة.

انه شعب شبعان، لا بل شعب معلوف ومتخم. وهذه الملاحظة

تكاد تصح على مجموع الاميركيين . ذلك ان معدلاً كهذا المعدّل يتناول حتماً ما يناهز المجموع. فلو لم تكن غالبية الشعب الاميركي مثلاً هي التي تستهلك اكثر من بيضة بالشخص وباليوم ، ولو اخذنا بعين الاعتبار الرضع والشيوخ والمصابين بالتخمة ومرض الكبد ، لبدا استهلاك كهذا غير معقول .

فأية ماركسية وأية شيوعية تستطيع الصمود في وجه هذه المقادير وهذه الارقام؟ وكيف لا يقال ان الروحاني (وقد بات ماثلاً في اميركا الى حد كبير) قد آن اوانه بالنسبة للأميركيين، لكي يكونوا خليقين بوضعهم المتفوق هذا .

ثمة شيء آخر : في مطلع سنة ١٩٤٩ بلغ عدد العاملين في الاقتصاد الاميركي ٦١ مليوناً ونصفاً . وهذا ما يفترض ، سواء للرجال أو للنساء ممّن هم في سن العمل ، نشاطاً اجماعياً نكاد نقول . فالبطالة إذن في اميركا لا تتعدّى في الاكثر تكاسلات شرقنا .

ثم ان الزراعة من قبلها تتمّ على إمكانات مدهشة، وبعدد من العمال لا ينفك يتضاءل. يقول ولف: « بفعل المكننة المتزايدة في الزراعة خلال السنوات العشرين الأخيرة (وعلى الرغم من ضخامة ازدياد السكان) تدنّى عدد العاملين في الزراعة من ١٠٤٥٠٠٠٠ سنة ١٩٢٩ ، الى ٨٢٦٦٠٠٠ سنة ١٩٤٧ » . بينما ظلّت انتاجيّة الزراعة الاميركية في اطّراد . ان ثمانية ملايين من المزارعين يقدمون الغذاء لـ ١٥٠ مليوناً ويصدّرون ، الى ذلك ، عِشر

انتاجهم . وثمة تحت تصرفهم من الآلات والمحركات اكثر من تسعة ملايين، ناهيك بسائر الادوات. هذا هو تجهيز اميركا اليوم.

ولنلاحظ هنا مع ولف ان الاتحاد السوفياتي ، وهو الذي ينعم بالأوضاع المؤاتية نفسها ، عنينا المدى الرحيب ومكامن البترول ، قد حاول ان ينقل الى بلاده الطرائق الزراعية التي تعتمدها اميركا. لكنه ، بحكم اختلاف مناخه الاقتصادي ، قصر عن إدراك النتيجة نفسها .

امّا الصناعة الاميركية « فقد بلغ انتاجها في اواخر ١٩٤٨ ضعفَي ما بلغه قبل الحرب». كذلك « بلغ انتاج المكنات ثلاثة أضعاف ما كانه قبل الحرب » .

بلد عملاق ، بلغ من تجهيزه على الصعيد المادي ، ومن تخطّيه لسائر المعمور ، مبلغاً يجدر التساؤل معه هل المنافسة الصناعية ازاءه ما لبثت في الوسع ، ان لم تكن ضرباً من العطاء ؟ كذلك يجب التساؤل: ماذا تهيىء الطاقة الذرية لربع القرن المقبل علينا؟ ولا جرأة لنا على استباق الامور لما هو ابعد . كل هذا يحدو على التوكيد ، اقولها واجفاً ، ان المستقبل لله .

ومما أبانته اخيراً حرب كوريا ، تلك السرعة التي تنمو بها القوة العسكرية الاميركية وتنتظم. فلقد قيض لنا ان نشهد ردة فعل صاعقة ، وقيادة لا تهاب العثرة العارضة مهما اعصوصب الشر . وأغلب ظني ان في هذا كله ما يخوّلنا ان نطلق على الولايات المتحدة حكماً اجمالياً يتناول بالتقدير الصائب حاضرها والغد .

أفضنا في الحديث على الاتحاد السوفياتي والصين والولايات المتحدة . اما البقية ، تلك التي ليست البتة نزراً أيسر على صعيد الفكر ، البقية التي تمثّل لعمري ، أو تكاد ، كل التاريخ والماضي ، فعلينا ان نبتغي اليها طريقاً ونسرع .

تتألف اميركا اللاتينية مما يقارب المئة وعشرين مليون نسمة ، ومن نحو عشرين أمة ، ومن مخزونات عظمى من الإعمار والخيرات . فهي ، في العالم الجديد ، حساسية اقرب الى حساسية «البحر المتوسط» منها الى تلك التي للشمال . وكثيراً ما تتناوبها السورة ، شأنها شأن المناطق الحارة من الارض . وهي ليست بنجوة من المنازعات السياسية الاميركية الصرف ، وليس لها خلف البحار من هذه المنازعات ، الا ما هو على الصعيد العقائدي . فهي تدخل الحروب العالمية وتخرج منها باسم شعور طبيعي من التضامن الاميركي . بيد ان للروحاني فيها ، الى بعض الشواذ طبعاً ، مكانه المرموق .

ان بين اميركا اللاتينية واوروبا اللاتينية من المبادلات الروحية اكثر ممّا بين اميركا الانكلوسكسونية وأوروبا التي تحمل هذا الاسم . كما ان بينها وبيننا نحن اللبنانيين شعوراً بالاخوة مطرد النمو .

فمروراً بأميركا اللاتينية نلقى انفسنا على عتبة أوروبا ، تلك الأوروبا المجيدة ، التعسة ، التي لا يمكن فصمها عمّا لها في العالم من تشعّبات .

فالمملكة المتحدة وشركاؤها ، بما في ذلك الهند (والهند

بعدما صارت جمهورية أحسنت الحفاظ على وفاق مع الانكليز هو خير ضمان لها) ، فالمملكة المتحدة وشركاؤها قلنا ، بعددها البالغ خمسمئة مليون ، تمثل اكثر من خِمس سكان الارض ، كما تمثل المجموعة السياسية الاوفر عدداً وتبايناً . ثم ان الروابط السياسية بين انكلترا ودول الكومنولث بقدر ما تزداد دقة ورهافة ، بقدر ذلك يبدو أجل الامبراطورية البريطانية وما هو بالكارثة الوشيكة الوقوع . فطائر الفنيكس يعود بأرياش جدد . إنها لحقيقة بيّنة ان الغرب وهذه الامبراطورية (ومعها الشرق الأدنى ، نعم) متضامنان . فإن نزلت بالأول تهلكة هلك الآخر . وليس مصير الغرب ، اليوم ، الا في قبضة انكلترا وفرنسا اولاً . لكن لا بد للصرح كي يصمد أن لا يغفله المعنيون الآخرون .

وعلينا ، كي نفقه أهمية انكلترا في العالم ، ان نسائل النفس احياناً أي تشويه يصيب أرضنا لو ان انكلترا وما يمتّ اليها قد عفت من الوجود . كذلك قل عن فرنسا ، تلك التي يحفل تاريخها بالأحداث ، فضلاً عن أن لغتها وتقاليدها هي لنا ، وللحضارات الجديرة بهذا الاسم ، لا أثمن ولا أعزّ .

ثمة في القارة فكرة خاطئة عن الانكليز ، أثارتها العداءات التاريخية وجعلتها محقّة بعض الحين . لكن هذا الوضع قد شاخ في بضع سنوات قدر ما شاخت احداث حرب المئة عام . ان انكلترا اليوم ، تلك المؤسسة الجماعية العالمية الأبعاد ، سياسة

وفكراً وأدباً واجتماعاً ، لهي للمسكونة ضمانة حضارة ونظام .
كتب اندره سيغفريد ، وهو الذي وازت حكمته العريقة مدّخر تجربته ، كتب يقول : « ان عبقرية السياسة الانكليزية قادرة، في اعتقادي ومرتجاي ، ان تجترح المعجزة مرة اخرى ، فتبرهن ان اللامنطق يستطيع ان يعيش » . فهل الصرح البريطاني ، في اقراره بحقوق العقل وغريزة البقاء ، حاضراً ومستقبلاً ، هل هو حقاً لا منطقي الى هذا الحد ؟

لكننا بات يتعذّر الكلام عن انكلترا والامبراطورية البريطانية دون ان تنفذ أوروبا الغربية في لبّ الموضوع وتشمله .

سيرى حفداؤنا من بعدنا تراثات الغرب مصهورة في تراث وحَد ، أو لا يرونها ابداً لا سمح الله . ولئن كانت وحدة العالم ستتمّ ، فمن هذا السبيل وحسب تؤتي أكلها . امّا بالنسبة لشرقنا الأدنى (لشرق ادنى بصير كما نرجو) فان أوروبا الغربية تمتدّ دون تباين ، وفي خط سويّ (أو يكاد يكون) من الخليج الفارسي حتى رأس الشمال .

فالحضارة الكلاسيكية ، منذ البدء ، كلها هنا .

وهنا تكمن بالقدرة كل المبدَعات .

ان أوروبا الغربية ، أي فرنسا وايطاليا والبنلوكس والبلدان السكندينافية والمانيا واسبانيا واليونان وكل ما يتّصل بها، بوجه أو بآخر (ومع اليونان الحضارة الاغريقية جمعاء) يضاف الى هذا الغرب آسيا الصغرى والمشرق وجزيرة العرب (كما

اسماها العالم العربي عن حق) كل هذه تؤلف ٣٥٠ مليون نسمة ، لم يبرحهم قدرهم على هذه الارض ، والحمد لله ، رغم المكاره والبؤس . امّا العرب فسنضعهم موضعهم بعد حين .

ممّا لا شك فيه أن أسباباً جغرافية وتاريخية رسمت لأوروبا الغربية وجهها الجديد . لكنّ ثمّة كذلك اسباباً منطقية دفعت تركيا الى المطالبة بمقعد لها داخل الحلف الاطلسي ، بحيث ان البحر المتوسط بمداه ليبدو اليوم حسبما هو : جيباً من المحيط الأطلسي . بينما لبث زمناً طويلاً وكأنما هو من العالم كل العالم .

وما برحت فرنسا ، وهي التي نعمت بالأولوية في أوروبا طوال اثني عشر قرناً ، ما برحت في وسط المصمّم الغربي، ذلك المصمّم الذي أخذ على عاتقه مهمّة الدفاع عن المناطق المتوسطيّة من القارات الثلاث ، ابتداء من الاطلنطي. هذا ما يبتغيه الماضي بأسره ، وما يبتغيه ماضي الحضارة العربية الجميل . والماضي بأسره يعني تاريخاً مديداً ، مجيداً ، لا يستطيع أحد من الشرق الكلاسيكي نكرانه دون ان يغضّ من ذاته .

وعندما يشفّ الغشاء الذي يغشّي الغد ، يصبح التضامن المتوسطي واقعاً حاسماً تبطل معه الكثرة من مناصبات اليوم ، كما بطلت في الغرب مناصبات الاقطاعيين في مغربان القرون الوسطى .

أدعيتنا تواكب هذا الغرب الوليد ، لأنه لا يمكنه ان يكون بمنأى عن أية حضارة من حضارات المتوسط . فهذا الغرب الذي

يقحم التركي بابه جذلاً إن هو في الحقيقة الا واحد من المظاهر الأكثر تمييزاً لعالم اليوم .

وبما ان البحر المتوسط قد « اعتزل دوره » كطريق للحرب – والتعبير لاندره سيغفريد ايضاً – فانها لدواعٍ جديدة ، اقتصادية وروحية ، تلك التي ترهن بمستقبله السياسات والمخططات . والحقيقة ان العالم العربي ، بمطلّه البحري المديد ، ما هو الا عالم متوسطي .

فالأربعون مليون نسمة اذ َن ، المنتثرون في بلدان الجامعة العربية ، ينزلون من التاريخ مساقط رأسه بالذات ، تلك التي تشكّل مع التاريخ القديم منطلقاً لتعليم الماضي التاريخي في الغرب كله . هذه هي الرابطة الوثقى ، الرابطة الطبيعية ، التي شدّ ما تخفى في الشرق (لا تخفى في الغرب وفي الشرق الأدنى على السواء) والتي هي فاتحة تضامن محتوم .

وبعد ، ما هي بلدان الجامعة العربية ، ونحن منها ، ما هي لوحدها بالنسبة لعالم اليوم ؟ على صعيد القوة تكاد تكون لا شيء . ولنقل هذا بجرأة واخلاص . امّا على الصعيد الجغرافي ، كما على صعيد التاريخ ، فانها واقع ولا أثمن . ولئن لم تكن بحد نفسها تستطيع الكثير ، فان قوتها لتكمن في انتهاج سياسة رشيدة ، متفهمة ، هي سياسة مصيرها بالذات . فهي تشكّل معاً عقدة طرقات ومفارق . وهي أعجز من ان تقف حائلاً دون العبور . ثم ان في باطنها وفرة من مختزنات البترول ، من هذا « الوقود

الصناعي بل من هذه المادة السياسية المتفجّرة » ، كما سمّوه عن حق . أليس في كل ذلك مقوّمات أساسية لسياسة موصولة الحلقات ؟ وكيف يسوغ للبلدان العربية ، وهي في هكذا موقع جغرافي ، ان يلوح ببالها ، ولو لحظة ، الانطواء على عزلتها في هذا الظرف العصيب .

ان ترابط الدول يبرز ، في الواقع ، حيثما كان . ولنا تطرّق الى ذا ، بعدما نرسل كلمة في اسرائيل .

لا احد كان يريد ان يعي ذلك منذ سنتين أو ثلاث . فالوطن القومي اليهودي لم يكن ، نظرياً ، سوى مصمّم انساني . فاذا في قلب الشرق الأدنى دولة متوسطية ، جد صغيرة في ظاهرها ، عالمية في الواقع . وهي ، في رأي من يعرف كيف يستشفّ الامور ، تنعم منذ أمد بعيد بخصائص الدولة الكبرى.

ولئن كان للاستعمار معنى ، ومعنى للعنصرية ، فان اسرائيل هي بالتحديد الدولة الأشد عنصرية والأشد استعماراً على وجه الارض ، ثمة فيها اكثر من مليون نسمة . لكن في سواها من البلدان ، وضمناً على الاقل (مهما كانت آراء أرثر كستلر) من عشرة الى اثني عشر ضعفاً من مواطني اسرائيل ، في وضع يجاوز كل مألوف .

ولكان الجدّ قد أعوزنا لو اننا في حديثنا عن عالم اليوم لم نخصّ اسرائيل بكلمة ، هذه الاسرائيل التي عادت الينا ، سياسياً ، جاراً كانته لفينيقية في غابر الزمان .

هذه الاسرائيل التي تتمدّد وتسترسل ، من يستطيع انكار طابعها العالمي ، ومقدار نفوذهـا ومداه ، وما تتمتع بـه ، الى جانب دبلوماسيتها الرسمية ، من شبكة دبلوماسية شبه رسمية .

ما من احد أكثر مني أشاد بمزايا بني اسرائيل وتفوقهم ؛ ما من أحد أكثر مني حذّر من مخاطر جوارهم الخطير . وفي ودّي ، هنا ، أن اكون موضوعياً قدر ما ينبغي ان اكون ، فاكتفي بهذا القول : لا الدول العربية ولا كبريات الدول قدرت حق القدر ما يمثله هذا الواقع وهذا الحضور . فالحكمة يجب ان ننشدها اليوم في التفكير الهادىء ، الموصول . ففي جنوب لبنان ، على التخوم ، كما على تخوم مصر والاردن وسوريا ، تقوم واحدة من اشد القوى نفوذاً في الارض ، حيث اللاملموس واللامرئي يفوق بكثير ما يستطاع لمسه ورؤياه . بحيث ان ما يبيّته المستقبل لأولاء واولئك لم يبق منوطاً الا بحكمة اسرائيل واعتدالها وطيب نيتها . ان لبنان بلد جد صغير ، وأصغر من ان يتيسر له تهديد هذا الجار الطاغي . لكن على اسرائيل ان تخشى مطامعها هي ونزواتها أكثر من خشيتها البلدان المحدقة بها . ولتحذر التهديـد المستديم الذي تشكّله هي ذاتها لعنصرها بالذات .

* * *

بعد هذا المطاف ، وبعد ما أشرت الى المهمّ كما أعتقـد ، نستطيع بتأملنا الخطوط الرئيسية لعالم اليوم ان نستبين هذه الخطوط استبانة أمينة ، في هيئة الامم المتحـدة ، تلك الهيئة

التي تبدي مقوماتها وطبيعتها ، من بعيد ، أفضل ممّا تبدي في ما تبتنيه من ابراج بابلية . انها تضم ، أو تكاد ، أمم الارض طرّاً (ومن العجب ان لا تكون قـد ضمّت اليها بعد ايطاليا واسبانيا وسواهما من البلدان . لكنها منذ ايام وحسب أخذت ابوابها تشرع في وجه اسبانيا) كما انها تعرض خلفة العالم الاساسية وانشقاقه معسكرَين مفجعَي التناحر ، وفي قلب كل معسكر شواهد بيّنة على التبعيّة والتبعية المتبادلة . ولو ودّعنا جانبـاً القسر المعنوي والعنف ، نراهم ينحازون لمعسكر دون آخر لا استجابة لدوافع قومية ، أو عنصرية ، أو لغوية ، او لفوائد اقتصادية ، بل ارضاء لنمط في التفكير والعقيدة .

ولقد طغت ظاهرة الوعي (واللاوعي الى حـد ما) على القومية والعوائد ، وحتى على القرابة الدموية ، فاذا هـذه الظاهرة طرفة العالم الكبرى ، بعد الذي شهدناه من عصبيات القرن الاخير ، ومن عنصريات ومظالم دامية ارتُكبت باسم مبدإ القوميات وتحكمات العنصرية ، واذا القوميات المتطرفة تناهضها « العالميّات » بتعصب لا انساني ، واذا حجة الاقوى هي التي تحسم كل شيء .

اتيح لكم جميعاً ان تعلموا كيف يتم التصويت في الامم المتحدة وكيف تسيطر التبعية والتبعية المتبادلة ، وكيف تحسران عن موكب حافل بالتعاسة والمكر والتمويه .

لكن الطبيعة الانسانية هي التي ارادت ذلك ، لكنه التاريخ

والاسطورة . ولسنا نجهل ما جرى لاناء الخزف واناء الحديد طوال رحلتهما معاً .

واليكم هذه المأثورة لسغفريد : « الاستقلال الحقيقي لم يبق ميسوراً ، في ايامنا هذه، الا لعدد قليل جداً من الامم الاستعمارية البحت » .

على ان الجهد الذي تبذله الامم من اجل الاتحاد لعظيم وبادي الجد . فهو ينم على رغبة ، بل على ارادة للاخاء والعدالة ، لعلّ القوة يوماً يدحرها الحق . ولكن في وسعنا ان نبدي ارتيابنا ، لزمان طويل بعد .

وتطالعنا حقيقة اخرى: ثمة جماعات بشرية موفورة الامتداد أخذت تتخطى الحدود وتبرز ، في احترام نسبيّ لحقوق الانسان او في تنكر لحقوقه .

وقد يكون لنا ، مثلاً ، أن نرى الروحانيين قبالة الماديين ، يستزيدون تعارفاً ، وعلى مدى أبعد ، ويتبادلون الشعار باسم القيامة والحياة .

لكن الصراع المستغلق يمضي الى ذروته . فاولاء يقتتلون من أجل هذي الارض وهذا الوجود الزائل لا سواه ، واولئك من أجل أمل ومنزلات وحياة آجلة ولامتناه .

بقيت ملاحظة أخيرة : فكما ان هناك مادية ماركسية ،

كذلك هناك مادية ليست بماركسية . واذ نعود بالمشكلة الى أبعادها الأرضية البحت ، تكفّ هذه المشكلة عن أن تكون سوى مسألة نهج وأصول ، بين مبدإ الحرية العقلانية ومبدإ الاشتراكية الأصلية ، ما دام الهدف المسكين أن يقتنص كل منا في هذه الدنيا شيئاً من الهناء قبلما يعفوه التراب .

وفي ودّي أن اعلن ، ههنا ، اننا اذ نحوّل الوجود البشري على الارض الى هذه الضآلات ، هل يعود ذلك الوجود يساوي اكثر من العارض الذي يكون قد سبّبه ، عنيت «القدر الأعمى الغاشم» .

وفي رأيي (واعتذر عن ايراد هذه الشهادة بصيغة المتكلم) ، ومع الأخذ بكل ما يعتبره العلم حاصلاً أو محتملاً ، في رأيي أن الانسان حيوان متفوق لم يتأتّ من الجسد وحسب ، بل من الارادة والروح ، وان مصيره ارتقاء عبر تزكية نحو القدرة المطلقة التي أبدعته . ولكي يبطل عالم اليوم أن يكون عالما ضيّقاً ، تتنازعه نوازع الغيرة والجشع والطماعية والحسد والغضب والبغضاء ، ينبغي وصله من جديد — وهذا لعمري الحل الأوحد — بما هو أبدي ، أي بمبدإه وغايته .

ان عالم اليوم يتخبط بين الاقتصادي والروحي ، اكثر من أي وقت مضى . وهذا التخبّط نلقى مختلف مظاهره سواء في الحياة اليومية أو في الآداب والفنون والعلوم . وما المعضلة التي تواجهنا اليوم سوى معضلة اساسية لا مسألة نهج وحسب . ثم ان رفاهية الولايات المتحدة وثراءها كله يخلّيان الانسان ظامئاً ،

يابس الحلق ، توّاقاً الى الارتواء ، على يد الروح، من الماء الذي وحده يروي. ان صناعات العالم كلها لتلبثن كليلة ازاء أدنى آلام النفس . وان قلباً مكلوماً هيهات ان تبلسمه الديمقراطية أو الماركسية .

وليس القوت الافضل والمسكن الافضل والكساء الافضل ما يجمعنا على وئام مع الموت . وما نبل العالم ، نبله الحقيقي ، الا لأن ألمه في نفسه ، وهو بهذا المقدار عظيم . وحيال هـذا النوع من الالم يقف الديكتاتوريون وأولو الاقتصاد عزّلاً على السواء. فالمطلوب شعور بالرأفة ، بالحب ، بالحنان ، عـلى رجاء العدالة الابدية .

ان أحد معسكري العالم المقتتلين يكافح في الحقيقة من أجل مجد باطل ، والآخر من اجل روحه بلا شك. هذا ما تؤول اليه المطارحات كلها ، فضلاً عن النظريات والاحصاءات . وهذا هو عالم اليوم في مجده وتعسه . ولكن على بركات الله ! وطبيعي أن يفضي مطافنا الى الله ، ما دمنا قد بدأناه بالكواكب .

٦ تشرين الثاني ١٩٥٠

لبنانُ في العالم

الواقع والمرتجى

سيداتي ، سادتي ،

من يقل مرتجى ، يعنِ على سبيل المجاز مأملاً مرجحاً في المدى البعيد .

فالمرتجى يفترض البصيرة والترقّب ، في آن معاً . والانسان من دأبه ألاّ يفصل بين حاضر وغد .

أنْ يتطلع المرء الى الأمام ، وان يرى ، فذلك يقتضي ائتلافاً بين الحجى والخيال ، فكراً وبصراً : عنيت قسطاً من الخيال معقولاً (لأن الخيال والحدس يتلاقيـان احياناً) مع ما يقتضي من بصيرة لتمييز امكانات الغد وحقائقه ، من جملة ما يتراءى لنا من صوَر وافـكار .

ثم ان ما نرتجيه لبلاد ما يتخطّى افق العين المجرّدة . وهو لا ينفصل عن مطرح هـذه البلاد من الكون ، ولا عن علائقها فيه ، علائق يعوزها التكافؤ دون ريب ، لكنها متزايدة ، ولا ندحة عنها. لأن اطّراد الاكتشافات سيجعل كل شيء كونياً .

حسب العالم حدثٌ واحد حتى يتبدّل وجه العالم . وهذا كثيراً ما حصل في الماضي . فأعظم الحضارات شأناً تناهت من

ديانات وفلسفات هي وليدة إلهام مشرق ، وليدة ومضة مكوكبة . وربّ عصور رسمَ خطاها عارض من عوارض التاريخ .

هذه التوطئة يتوقف معناها على قدر ما تبثّ فينا من مناخ نفسي ، وما تؤهلنا للبحث المنطقي عن مستقبل اليه نتشوّف . سننظر بلادنا الصغيرة مثلما ننظر شريطاً سينمائياً يتسلسل فيه المشهد والحكاية على حد سواء ، أو مثلما ننظر أرضاً ممرعة ، يزدان فيها عمل الطبيعة بأعمال الخبرة والخيال .

ولا تخالنا ملزمين بنظام صارم أو بتصميم محدّد لا يحول . لا بدّ لكل دراسة تقديرية للحاضر ، ترمي الى غاية مستقبَلة ، لا بدّ لها ان تفسح في المجال لأوسع الحرّيات . ولن يكون في مكنتي ان اقول لكم في الحال ما سأقوله بعد حين ؛ (كذلك لمّا كنت اكتب . لم اكن ادري ما سأكتب . بيد أن شعوراً مبهماً كان يخامرني، بأن موضوعي مداره هذا الوطن اللبناني الصغير ، وبعض شروط ديمومته وحضوره في العالم ، الى بعض شروط صيرورته ، وهي بذاتها مستقبله في طور النمو والفعل).

ان موضوعنا سنستجليه معاً، كلما أمعنّا في الملاحظة والتأمل. وقد يتبدّى فيه بعد حين شيء من فوضى ، اذ حسبت من واجبي ان اكتب ، تماماً كما لو كنت أحدثكم وافيض ، دونما لجوء الى المراجع والاصول .

وهكذا أراني محدثكم اولاً ، وقبل النظر في العلاقات

الخارجية ، عن مواقف عقيدية تتصل بمبدإ الحرية ، والاقتصاد ، لأن مستقبل بلادنا مرهون باقتصاد حرّ ، مهما كانت التيارات المعاكسة .

وفي يقيني اني عشت هذه البلاد ، مدى نصف قرن من سنّ الرشد ، مثلما الرواية تُعاش ، أو مثلما يعاش فصل من فصول التاريخ . واني لمحدّثكم عن كل ذا ، سنداً الى ما لاحظته بنفسي وما أعرفه ، وسنداً الى ما أخذته عن الغير .

بين كل بلد وابنائه من وثيق المعرفه ما هو أشبه بصداقة عريقة . إنها بقعة أرض نمتّ اليها بعرى قديمة ، عرى ثابتة . وهذا لا يعني ، على كل حال ، ان لا تكون هذه العرى حديثة العهد . فما هو اليوم عدد الاميركيين المتحدرين من آباءٍ او اجداد ولدتهم امهاتهم في الولايات المتحدة ؟ وكم من لبنانيّ بالولادة هو اميركي منذ ثلاثين عاماً ، أو عشرين وحسب ؟ وكم من مواطنينا تراهم لبنانيين منذ ثلاثين عاماً وأقل ؟ ومع ذلك فقد نما الميل وقامت الروابط ، بفعل اختيار وانتقاء وعادة ، بفعل لفيف من الصدف والوقائع والذكر والمواعيد والمشاعر والحب .

ان القومية لأمر جلَل ، على ان نعدل عنها ساعة تمسي القضية قضية الانسانية ومصير الأرض . والحقوق الشرعية التي حقّت لمجموعة من الامم كفيلة عند اللزوم بإخضاع المصلحة القومية للواجب الدولي . فالأحرى أن لا تؤخذ هذه الأمور بالهزل .

بلادنا هي بيتنا ، لا بل هي بيتنا الأبوي . بيد ان عصرنا يريدنا ان نعنى ايضاً ببيت الآخرين ، وان تكون ثمة مشاركة ليس في المبادىء والعواطف وحسب ، بل في المصالح والروابط . فليس بعد اليوم أنانية مصون تقيم الحدود والسدود .

ولعلّ اللبناني قد خبر ذلك خيراً من أي كان ، منذ ان راح يضرب في جنبات المعمور .

* * *

عموميات

ان لبنان الغد ليرتسم في ثنايا التاريخ والجغرافيا . فهوذا حيث تلتقي القارّات ، في صميم العالم القديم ، موئلاً للمشارف والسماء الصفو والاشجار الثمراء ، موئلاً للمياه الرقراقة والمناظر المونقة والنياسم الليّنات ، عند شطّ بحر داخلي ، طالما شهد السلطنات والممالك تولد وتنمو ثم تتقهقر وتدول . بحر تناهى كل شيء الى سمعه وكل شيء تناهى الى بصره وعلمه ، وما زال حتى يومه هذا يرتنح مما يبثّه اياه العالم القديم .

ولقد بادر سكانه ، في عداد الأولين ، الى اقتحام المجازفة بعيداً ، على متن زورق من زوارق الحظ ، تدفعهم الى عرض اليمّ محاولة إثر محاولة . فذلّلوا المخاطر ، وكبحوا الأنواء ، وحلّوا بعد بلاء في الشطوط المجهولة ، حيث اكتشفوا اناساً جدداً ، كما لو نكتشف نحن يوماً كوكباً آخر واناساً آخرين . ولقد حملوا سلعاً من صنعهم للمقايضة ، أو سلعاً مما اختاروه . وحملوا جمّة

أشياوات مشغولة ، تزدان بأزهى الألوان . وعادوا بالمواد الأولية والمعادن . ونشروا اللغات وتناقلوا الاخبار . كانوا ولبثوا يتكلمون اكثر من لغة واحدة . واكثر من ذي قبل ليَلبثون .

من هنا نشأت العلاقات والمتاجرة . من هنا نشأت الأسواق والخدمات . ومن ثم المدينة البحرية والمستعمرة . وحينما اندمجت فينيقيا القديمة في عالم جديد آخذ بالانغلاق من صوب البحر ، حينذاك أعوزها الهواء . فما كان من أولي هذا الشاطىء إلاّ ان رحلوا كيلا يضيّق عليهم الخناق ، ورحلوا في الغالب لغير رجوع .

ولسوف يمعن اللبنانيون في الترحال يوماً بعد يوم . ولسوف تتزايد مشاريعهم وتتراحب في الزمان وفي المكان . ولعلهم من أجلهم كانت الطائرة بعد السفينة . لكن كم يحمل بهم ان يعودوا الى الوطن ، وان لا يهجروه الى ما شاء الله . قد لا يكون في وسعنا ان نعيش بلا إغتراب ، كما قد يكون في تفاقمه هلاكنا . وبعد ، أوَيكفي المرء ان يهاجر كي تمسي هجرته ضرباً من ضروب الفتح ؟ لا ، بل أحرِ بالهجرة ان تكون مشفوعة « بشيء من قوة الامتداد ، بشيء من الحضارة المادية » . فان ما نكتشفه اليوم ، مما كانت فينيقيا تصنعه او تبيعه من اشياوات الحسن والأناقة والفن ، ليشهد بان الذوق عينه في ما كانت فينيقيا تعرضه على الأمصار . كما ينمّ على تقدم في الحضارة ومزيد إرهاف . بحيث ان هذه الاشياء في معظمها كان ليمكن ان تتناولها قوانين الحدّ من الإسراف .

وان ما يعنينا من التجارة اللبنانية اليوم وامس وغداً ، انما هي النوعيّة والجودة ، انما هي تلك النفائس التي تحرّمها بعض الأنظمة وبعض العهود . ولكنها نفائس نبيلة ، بها تعمر المتاحف وتتميّز عظائم العصور .

ان للبنان على الخريطة مركز البلد المختار . وما قوام تراثه سوى مزايا انسانية وموارد ذكاء .

وهذه المزايا لا تبدو كما هي ، بل تبدو بنتائج مذهلة تثبّط عزيمة الاحصائيين . فليس ثمة احصاءات تتناول السياحات الذهنية وارتحالات الفكر. امّا اخطاؤنا فتبرز في حياتنا اليومية ، ويبرز معها من يناقشنا الحساب . ما من شعبٍ بلا اخطاء . ولعله يناسب الآن تحليل بعض نواحي الضعف والقوة فينا تحليلاً موجزاً ، في سبيل الغد .

فالقوة تكمن ، هنا ، في سرعة الادراك والعمل ، في التكيف مع العقبة ريثما يقيض تذليلها ، وفي التمتع بقدر وافٍ من الحريات ، يحول دون فتور الهمة . وتكمن في ان لا تخضع قيمة الاشياء ، بصورة مضحكة ، لقيمة العملة النقدية المتبدّلة . وتكمن اخيراً في التماس الثروة من اجل تبذيرها واستخلاصها بعض الهناء .

فهناك سببان رئيسيان ، وعلى صعيدين مختلفين ، قوّضا اوروبا وكل ما انيط بها ، بمعزل عن الحروب أو بعدها ، ألا هما الإفراط في التشريع ، وفي تخفيض سعر العملة. فأوروبا لمّا تعلم حق العلم انها ارهقت القلوب بفرط تعقيدها جهازها التشريعي ،

وانها بتخفيضها سعر عملتها ، حيناً بعد حين ، أوهنت معنويات المواطن وزعزعت الحياة الاجتماعية . فاذا العملة الباطلة تقضي على كل ثقة ، واذا التشريع الباهظ يشلّ كل مبادرة ، واذا التحصيل الضرائبي يخلّف احتكارات فعلية في صالح من هم اشد مكراً ودهاءة. أمّا أشدهم استمساكاً بالروح المواطنيّة فقد غلبوا على أمرهم ، شأنهم شأن اولئك الذين سقطوا في مضيق «ترومو پيل» : « يا عابر السبيل ، اذهب وقل لاسبرطه اننا متنا هنا امتثالاً لشرائعها » . بينما ظلّ الازدهار حليف أولئك الذين اتخذت ثرواتهم شكلاً مرناً ، خفياً ، هارباً .

وغالباً ما باتت التشريعات المعاصرة قناعاً للأخلاق لا وجهاً لها. بحيث يصحّ القول احياناً في قوانين اليوم ما قاله لاروشفوكو في الرياء : هو ما تؤديه الرذيلة للفضيلة من ضروب الإكرام .

وانبرت الشريعة تناصب الانسان العداء في كفاحه من أجل الحياة. كما ان التعلل بتخفيض سعر العملة قد ذهب دواليك بجهود من هم اكثر استئهالاً وفضيلة .

واذا ما نحّينا بعض بلدان الشمال ، لوجدنا انه ليس من سلطة تنفيذية تستطيع ان تطبّق تطبيقاً جدياً القوانين المتعنّتة وتلك التي تقابل الطبيعة باعتساف ، دون ان يفضي ذلك الى تفاقم الفوضى . كلنا يعرف قصة السعر الأعلى ، على الأقل منذ قانون ديوكليسيان الشهير . ولكن من ذا الذي يرجع بعد الى التاريخ ؟

ومن حسن حظنا أن قيمة العملة والارض والمشروعات ،

عندنا ، ليست عرضة لتقصيرات الدولة . وعسيراً ما تُقرض الدولة ، عندنا، لفرط ما يُخشى عجزها أو تبذيرها. ومن الافضل ألا تستدين الدولة الا في ندرى ، اذ هي التي تزعزع المجتمع بإسرافها . وهي عندما تعجز عن وفاء الدين ، تعمد الى تخفيض سعر العملة ، مضحّية بقوام موازنتها ، مقوّضة كل توفير ومال وأُطر اجتماعية ، بحمق ، بلا رحمة ، بلا تمييز .

وعلى كل حال ، ينبغي في هذا الموضوع الدقيق أن نتجنّب الخلط بين تشريعات الامر الواقع والعلة التي سببتها .

نحن في لبنان نأبى الشرائع اللاانسانية ، ونتوخّى الثبات النقدي . فلنترسّخ في هاتين النيّة والإرادة ، ففيها فوق ما في جمالاتنا الطبيعية ما يدعو الاجانب الى اعتبارنا بلداً موفور الهناء. وكلما ازدادت شرائعنا اعتدالاً وارتكازاً على علم النفس (أي على معرفة الاخلاق والناس) ، وكلما ازدادت حرمتنا للعقود وصرنا اكثر فأكثر ملاذاً للأشخاص والأموال ، ذدنا ذوداً أفضل عن النظام الخلقي والاجتماعي والاداري والسياسي . هذا مع العلم بأنه لا يحق للمشترع إقرار قانون، وفي يقينه أنه هو لن يخضع له.

ولا يخفى أن الاجانب يرون في أرضنا ارضاً ميمونة ، ويرون فيها البحبوحة والسلام . بينا نحن نكاد لا نصدّر شيئاً ، ونكاد نستورد كل شيء ، مما يبدو ضرباً من الإعجاز . ثم ان العمل عندنا أيسر ، ولا اقول اوفر ، من اي مكان آخر. لأن الدولة لمّا تبلغ تلك المرحلة التي لا تتورّع فيها السلطات العامة عن

حبس الانفاس ، باسم المبادىء الاقتصادية المزعومة والنظريات الاجتماعية الصارمة الجهاء . الا فلنأبَ أبداً كل شطط في ذا .

وأحرِ بلبنان ، كي يحيا وكي يدوم ، أن يتنكر لما ينتاب الغرب من مرض تشريعي وضرائبي . وأحرِ به ان ينافح عن الحرية بقدر ما التمرس بالحرية لا يسيء الى الغير ، وطبعاً الى الوطن . وحذار الاضاليل التي قد يسوقها الى حكامنا، عن حسن قصد ، بعض تقنيّي الغرب . وحذار العقائديات المستعرة في الشرق . فكم افضت النيّة الطيبة هي ايضاً الى الانخداع .

بيد ان الغرب لا يفتأ استاذنا في مجالات العلوم الرياضية والميكانية والاحصاء. وسيبقى كذلك الى ما شاء الله. لكنه ليس استاذنا في حقل الفلسفة السياسية ، ومعرفة الطبيعة البشرية والعلم الاقتصادي والمالي . فأين سيكولوجيته العلمية من سيكولوجيتنا التجريبيّة ؟ نحن نسبر الانسان ونتغلغل في اعماقه خيراً منه ، وخيراً منه نسبر الحريات والقوى التي لا يحصرها حصر ؛ ممّا جعل بيروت ، مثلاً ، على الصعيد العملي ، احدى آخر الأسواق الطلقة في العالم . وعلينا يتوقف ان نرسي لبنان على قواعد أمكن ، وأن ننمي ازدهاره بمقاومتنا طوعاً لكل حكم قياسي يُرسل عفواً . ونحن لن نقدم على اعتساف الطبيعة البشرية بحجة ان نسوس أمورنا سياسة أفضل. فثمة اوهام قتّالة لن نتهالك ابداً من اجلها .

وعلينا، بالنسبة الى الحقول الاقتصادية والاجتماعية والموازنيّة

في الغرب،ألا يسترقّنا تقليد حرفي، بل علينا ان نكون حيالها مراقبين نبهاء. ولو ان التشريع الانكليزي ، أو تشريع أي بلد اسكنديناڤي ، قد طبق علينا بحذافيره ، لتداعت تجارة هذه البلاد ، وانهار قوام عيشها في أقل من عام ، ولأدى ذلك الى الافلاس والهجرة الجماعية وتردّي هذا الوطن في البلوى ينوء بنير من حدثت نعمتهم في سوق سوداء .

ان مستقبل لبنان منوط اساساً بالحرية : حرية في العقيدة وحرية في العمل والدأب . وهو منوط برحابة البصر والبصيرة في النظامين السياسي والاجتماعي ، وبتسديد الاخلاق والعوائد ، أخذاً باحترام الحريات الشرعية ؛ ومنوط اخيراً بازالة القيود والعوائق على مدى وسيع . وهناك أمور جمة يستطيع البلد الصغير ان يسوّغها لذاته ، فيما يجب على البلدان الكبرى ان تعفّ عنها . فلصغار البلدان امتيازات لا زالت تجهلها هذه البلدان . لكنّها ستعرف يوماً كيف تستجليها استجلاء أفضل . وشيئاً فشيئاً سيغدو القطاع الاقتصادي والضرائبي أحد اهم قطاعات سياستنا العامة على الصعيد العملي .

ولا يغربن عن البال ان تشريعاً ضرائبياً لهو باديء بدء مسألة نفسية وخلقية ، وان الشرائع لا تُسَنّ من اجل ربع الشعب او نصفه ، وانه لا يمكن ارغام شعب على اداء الضرائب الباهظة إن كانت كثرة المعنيّين فيه متمرّدة او آبية . وإلا كان التهرّب من دفع الضريبة ، وكان تفشي البرطلة والفساد ، وخلفهما دولة

خائرة لاهثة . كذلك قل عن المناقبية في الاعمال ، فإنها اذّاك تلاقي حتفها ، ويلاقيه معها نفر من المواطنين المرهفي الذمة ، ممّن يبهظهم سعر الكلفة أغلى بكثير من سعر منافسيهم القليلي الاحتفال بروح المواطنية والفضيلة . انها الحالة أكيدة من حالات الدفاع عن النفس، حريّة بأن يتفهمها وزراء المالية في كل البلدان.

وهناك قاعدة ذهبيّة يمكن الاعراب عنها بهذه الكلمات : لا يكفي ان تُسكّ الشرائع . بل على المشترعين ان يشترعوا لأنفسهم قبل اشتراعهم للغير . وهذا بالذات ما ينبغي ان يكون في لبنان مقياساً للشرائع المقبلة .

ولئن كنا نستمد القوة من مجموعة حريات وملايينات ، فإن ضعفنا يتأتى من فرديّة تبطل معها النظُم ، وتمسي المشروعات الجماعية عسيرة واهية . وهذا هو من اللوحة متنها .

بيد أننا ، في ذلك كله ، نذعن لحالة من حالات الضرورة. فنحن مسوقون الى اعتماد السرعة في البتّ والإقدام، كعامل اول للفلاح ، ممّا يصدفنا عن اعتماد الشكليات والطريقة الجماعية في التشاور والتقرير . فكأن كل شيء في نشاطنا التجاري ينبغي ان يتم برقياً . فربّ رحلة يجب اعتزامها بين عشيّة وضحى . ورب مجازفة يجب خوضها دونما ابطاء . وكم من فرصة يجب انتهازها قبيل فوات الاوان . فاذا ما استمسكنا بالشكليات وشدّدنا الرقابة بات كل ذلك مستحيلاً . من هنا يتضح لنا بون شاسع يباعد بين الاصول الغربية المحكمة ، الحازمة ، وبين السليقة

المتوسطية المحض . فبراعة الانسان في الشرق الادنى هي عنصر أسّ ممّا له وبعضٌ متين من راسماله . وهي لا تقترن بالفعالية الا اذا تخطت نطاق الانظمة والقيود ، أو حادت عنها .

وبنسبة ما يستبيح لبنان حرمة حرياته بنسبة ذلك يغدو عرضة للتصدع والانهيار . لكنه بقدر ما يجعل هذه الحريات سابغة فاعلة ، بقدرها ينعم بالبحبوحة والازدهار . وعلى الدولة اللبنانية اذا هي حرصت على اقامة وزن للمستقبل في موازنتها ، ان تضفي دوماً على هذه الموازنة صيغة شخصية فذّة . وانه لمن الحمق المطبق ان نبتني قواعدنا ههنا طبقاً لقواعد البلدان الأخَر ، غرباً او شرقاً . فموازنة لبنانية سديدة انما هي كفيلة بتيسير الحياة لاولئك الذين يموّلونها ، ويضطرون من اجل تمويلها الى المضي في بهلوانيات مستبعدة التصديق .

هذه الملاحظات العابرة ليس من شأنها ان تستنزف كل الموضوع. إنها تشير الى أهمية الحرية في حياة لبنان المادية ، لبنان اليوم ولبنان الغد ، بعدما بات دورها كبيراً في حياتنا الروحية والفكرية على السواء.

ومرة اخرى نقول ان كل شيء عندنا وقف على الحرية ، ومستقبلنا منوط بها . فبالحرية تزداد امكانات لبنان . وبها يصون هذا البلد الصغير ازدهاره وينميه ، ضمن اطار من النظام ومن شروط مكملة قوامها الفطنة والاتزان .

فإمّا أن نعمل بحرية على تصدير الفكر والخدمات ، على نحو

منظور أو غير منظور ، وإما ان نكفّ عن تصدير اي شيء . اذّاك يكون ما يذكّرنا برماد ايوب ...

ولعلّ من حظنا أن تكون الطبيعة بذاتها قد حبست عنا الصناعات الكبرى . فمع هذه الصناعات تتعقّد المشكلة الاجتماعية لا محالة . ولكن أية صناعة يقلّ زُبنها عن عشرة ملايين يظل في وسعها احتمال منافسة الدول الصناعية الكبرى التي يتوجّه انتاجها الى قارات بأسرها ؟ من يستطيع اليوم ان يصمد ازاء المختبرات الأولى ، وتقنيّات العالم الأولى ، المكرّسة لخدمة زبائن بلا عدّ .

إلاّ ان دورنا الموقوف على توزيع السلع والخدمات له كذلك قيمته . فهو يحوّل الكرة جمعاء ميداناً رحباً لنشاطنا . فالآلة التي نتقنها نحن لهي آلة مدارها الفكر . وهيهات أن يعفو الزمن هذه الآلة ، وهيهات ان يضاهيها شيء أو ينافسها شيء في البَدع الميكانيّ الصرف .

ستزداد يوماً إمكانات اللبنانيين التجارية بنسبة ما تتمركز الصناعات في كبريات البلدان . وستتمركز ولا بدّ . فعصرنا عصر مركزية . وما القوة الاقتصادية الهائلة التي توافرت للولايات المتحدة الاّ نتيجة مركزية طبيعية وشبه محتومة .

عشر سنوات من السبق الصناعي تسجّل منذئذ تفوقاً يكاد يكون حاسماً. فكيف اللحاق بالبلد المنافس وتخطّيه ؟ وكيف استدراك الزمان الضائع ؟

ومما يبدو لنا في غاية الوضوح ان للبنـــان حظاً في التوزيـــع اكثر منه في الصنع ، سواء على أرضنا أو في الخارج . فعلينا كي يشرع الأجنبي لنا بابه أن نشرع له بابنا بالمثل . والأولى بنا ألا يقتصر توزيعنا على الماديّات وحسب ،بل يتناول الخدمات بوجه أخصّ ، عنيت الخبرة والمعرفة .

فنحن كنا تجّار فكـَر وسنبقى.من هنا كان علينا ان نضمّ في حوزتنا ،كما غيرنا يضمّ المصنع،كل ما هو في نوعيته وليدَ المعيّنةٍ وفن . فمنّا يجب ان يكون المعلّم والطبيب والفنـان . ومنا الفندقيّ والحرفي الكفؤ،كذلك التاجر والعميل والسمسار والجوالة. تماماً ، اذا شئنا ، مثلما كان فينيقيّ الأمس .

هذه المهن كلها تقيم من الحرية ضرورة أُولى ، تقيم منها أُولى القواعد . وانما طبيعتنا ووراثاتنا وموقعنا الجغرافي ، انما هي التي تهدينا سبيلنا ، بل تحتّمه. وهكذا يرتسم مستقبل اللبنانيين في فعل اصطفاء ولا أرحب . يرتسم في المعرفة ، في الفضول ، في الحركة . ولن نعتمد ابداً الانتاج الضخم المتساوق،لا في الصنع ولا في الغرس تقريباً .لكن علينا ، اخذاً بالتنوّع الأكثر ، ألاّ نألو جهداً في سبيل انتاج كل ما يحيد عن المألوف ويبزّه .

فمستقبل لبنان ، ويا طالمـا كتبنا ، هو اولاً مستقبـل فكريّ ونوعيّ .

وهذا صحيح بالنسبة الى تجارتنا ،كما هو بالنسبة الى زراعتنا وصناعاتنا الصغرى . فنحن إن كنا على هذه البسيطة فلكي

نطالعهـا بخصب الحجى ، متفرّدين في كل شيء . ناهيك بأن جميـع الناس والشعوب لم يُعطوا رسالة أرضية واحـدة ، ولا أهّلهم ربهم لقضاء الاشغال نفسها .

فالتنوّع هو من صميم مصيرنا . وهو يقتضي شرائع مقتضبة وادارة لا تتعـدّى نطاق الجوهري ، عنيت من الاجراءات والمعاملات أقلها ، ومن الآفاق أرحب الآفاق .

* * *

ان ندلي بالمرتجيات لبلدٍ ما، فذلك يعني مشارفة أفق مترامي الجنبات . وها قد بات في نيّتي الآن أن احـدّثكم ، على صعيد المستقبل،عن لبنان في العالم العربي،وعن لبنان جاراً لاسرائيل، وعن لبنان في العالم المتوسطيّ ، وأخيراً عن لبنان وسط الطريق العالمي . هذه السلسلة تنطوي على طموح كثير ، ولربّما آلت الى الخيبة . بقي ان أعلمـكم اني سأتحدث عن كل ذا تبعاً لما يتوارد الى ذهني ، ودون مزيد احتفال بالسبك الأدبي .

وسأتحدث على قدر ما يسنح عقرب الساعة ، وقدر ما يسنح صبركم الجميل .

لبنان في العالم العربي

لـكي يحقق العرب مصيرهم بانسجام لا بدّ من التسليم بحقيقة ما بينهم من اختلاف الحساسية ، واختلاف المطامح ، واختلاف المياسم والقوامات ، وكلها فوارق ما برح الغرب يجهلها ، على ما يبـدو ، فيجب ارشاده اليها ، فيزول بلبال عظيم .

ومن واجب لبنان أن يبادر هو الى جلاء هذا الواقع حرصاً منه على مستقبله ومستقبل جيرانه الأشقاء . وليس بسرّ من أسرار السياسة أن تكون السلالات الأربع والممالك الخمس ، المتربعة في أحضان الجامعة العربية ، ناهيك بالجمهوريات ، ان تكون غالباً على نقيض أحلام ، وان تكون الحقائق الملموسة مموّهة بزائف الكلام . ولسنا نؤكد عن هوى عابث أن العالم العربي يختلف مفهومه للديمقراطية ونسق الحكم مع اختلاف مناخاته ومواقعه من خطوط العرض والطول .

وهذا ما يلقى أسّه في التقاليد المجلّلة ، كما يلقاه في الماضي السحيق .

فالعالم العربي ، في حوض المتوسط ، لا ينفعل اجتماعياً وفكرياً وسياسياً انفعال العالم العربي في شطّ العرب وحضرموت . امّا اذا انصاعت دمشق لحكم القاهرة أو القاهرة لحكم دمشق ، أو انصاعتا معاً لحكم بغداد ، فكم يُخشى اذ ذاك أن تتجدّد مآسي العرب الرهيبة في عصرهم الذهبي . ولعل أثبت ما يثبته التاريخ أن الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وقد تخالطت مكارمهم والمكاره ، أقاموا الموت بينهم فيصلاً ، وما كان ملكهم الاّ سلسلة مآس ، لفرطما اعتمل بينهم من تباين عنيف في الميول والمطامع .

ولنرجونّ مخلصين ان يثبت الهاشميون والسعوديون على طريق توادّهم . لكن قلقنا على المستقبل ما زال بالغاً . من الأكيد ان الجامعة العربية مأثرة نبيلة غرّاء . بل لعلّها ، من العالم القديم ،

أوفى شعاراته شرعية . لكن يجمل ألّا تتعرّض لتجربة تفوق طاقاتها ، وإلاّ انهارت تحت سورة المشاغبين وقوّادة الغاغة . ونكاد نقول ان هناك من العرب مثل ما هناك من الأوروبيين ، وما يحاول من أجل توحيد أوروبا سيحاول من أجل توحيد العرب . الاّ ان وحدة العرب ستكون أشقّ منالاً ، على الرغم من بعض الظواهر .

وما مهمّة لبنان ، وما دأبه ، الاّ ان يسهم في التوازن العربي بكل ما أوتيه من قوى ووسائل ، رجاةَ أن يشيع بينهم هناء جماعي . فحظ العرب وقف على التوازن وليس على الانصهار وما يتولّد من الانصهار من تناقضات وتشويش .

ومن الواضح أن ما يبذله لبنان من اجل اللغة العربية ، من أجل الجامعة العربية والسياسة العربية ، لذو شأن عظيم . لكنما عليه ايضاً الا يسلّم ببلبلة العناصر والقارات ، وأن يكفي العرب مؤونة الانحطاط الذي يترصّدهم اذا هم ارتضوا ان يتردّوا في المحيط الهندي . فجنوبي البحر المتوسط هو من حق اللغة العربية ، ذهاباً من مراكش حتى خليج الاسكندرون . وهذا الشطّ هو من الانبساط على هذه البحرة الأم ما يحدو العرب على الاعتزاز بنشق اللباب الصفو من نياسمه وعلى ما يصدفهم ابداً عن نكرانه . امّا اذا هم أناخوا رقابهم لأثقال الكتلة الاسيوية فلن يكون لهم إلاّ دركة المسترَقّ في حضارة مسترَقّة .

ونحن اذ نلقى في كفاح العرب المشترك ، من اجل فلسطين

والقدس ، رمزاً لأخوّة صائبة ، متوقدة ، لنسأل ونتساءل أي عضد فعّال لاقته فلسطين والقـدس في آسيا كلها ، من أقصى المحيط الهندي الى اقصاه . ولئن كان الشرق الأدنى بأسره قد هزّته هذه المعضلة بل هذه المهانة ، فالشرق الاوسط بمعظمه ، ان لم يكن بمجمعه ، قد قابلها باللامبالاة ، إن لم يكن بالعداء . وانه لمن شأن لبنان ، من شأنه الطبيعي ، ان يجلو هذا الوضع المبهم ، المقلق . وهو وضع لربما لا يراه حق الرؤية بعض الناس ممن ساقتهم طيبة نفوسهم حتى اندونيسيا .

والعالم العربي إن هو اراد الحياة، لا بدّ له ان يأخذ بأواصره الأرضية قبل ان يأخذ بأواصره العقائدية . ولا بدّ له ان يعرف الشطوط التي حضنت مناهله . إنها قاعدة حياة وخلاص للعرب اجمعين . فاذا التعليم في لبنان ، بمختلف مراتبه، لم يعنَ بتحقيق هـذه المهمة ، كانت أعمـاله قبض الريح ، وراحت دروسه في التاريخ والجغرافيا تخدم الوهم والباطل . امّا إذا كان هناك من تجمّع جديد يرجى تكوينه تجنباً لانفجار طاقات عصرنا الجهنميّة، فحول هذا البحر المتوسط عينه ينبغي التجمّع، حيث مشاطئوه شمالاً وجنوباً هم أشبه باميركيّي الشمال والجنوب .

مرتجيات لبنان بالنسبة الى العالم العربي هي مرتجيات ميمونة، لأنها تنبـع من المنابـع الروحيـة والفكرية واللغوية والسياسية والاجتماعيـة ومن اخوّة روح، اكـثر مما تنبع من النفعيّة والمادة البحت .

وها ان دوراً عظيماً ينتظرنا في محيطنا، دوراً كريم المقاصد. فاذا نحن عرفنا كيف نتنزّه عن البطـل وعن غرغرة الكلام وبهارجه ، واذا نحن عرفنا كيف نتحلّى بالتواضع والتجرّد ، أدّينا هذا الدور الانساني النبيل خير أداء، وكما يليق بنا ان نؤديه.

أقرب جيراننا إلينا هما سوريا واسرائيل .

فسوريا تحدّنا من الشرق والشمال . وكما نحن لنا شخصيتنا ، كذلك هي. لكنّها هي مهدّدة أكثر مما نحن مهدّدون. وعليها ان تحترس من جمّة مشاريع. مشاريع يمكن تشخيصها وتحديدها بمجرد الطواف بحدود سوريا . بيد ان ما يعرّضها لخطر لا أخطر منه ، انما يكمن في مفهوم للعالم العربي خاطىء . كأن تُدعى بين حين وحين الى التخلّي عن وجهها ، بحجّة توسيعها . فيما حسبها أن تراجع تاريخها ، حتى تستمرّ في خط مصيرها بالذات .

واذا سوريا أغوتها يوماً بحار غير بحرها المتوسط ، لقضَت على وجهها بالتشويه وتلاشت ، وفقـدَ الشعب الذي يحكمها كثافته الرئيسية ، بين الساحل والمدن المساحلة ، اذا صحّ التعبير — فدمشق وحمص وحماه وحلب لا تبعد اكثر من مئة او مئة وخمسين كيلو متراً عن الشاطىء — ولتحكّمت بسوريا اذّاك غالبيّة اخرى وعالم آخر. بينا نحن واياها، منذ سحيق الدهور ، منذ الفينيقيين الأُلى، ننتمي الى هزة جيولوجية واحدة ، هزّة لو كانت أشد قليلا واعمق ، لكانت قد حوّلت لبنـان جزيرة ، ولظلّت سوريا كما هي الآن، يتوزّعها مناخان: واحد متوسطيّ

وآخر قاري . ثم إن سكان سوريا هم متوسطيّون ، في ثلاثة ارباعهم على الأقل . امّا الربع الأخير فهو بالطبع شتيت من اهل الوبر والقبائل .

سوريا تحوق بنا إذَن من الشرق والشمال . ممّا يدعونا الى انماء التفاهم بيننا وبينها وتوثيق التعاون . وهذا لعمري يوجب على السياسة السورية توجيهاً شاملاً يتلاقى ومفهومنا للعالم ، في كثير او قليل . فضلاً عمّا يوجب من ابواب مشرعة ونوافذ مهوّاة . وكل ذا آتٍ بإذن الله .

لبنان جاراً لاسرائيل

امّا في الجنوب فهناك اسرائيل ، بدعة الأرض ، وواحدة من اغرب مغامرات العصر وابعدها دويّاً.

اسرائيل ليست في الواقع بلداً كالبلدان . فمن يتاخمها يتاخم دولة عالمية نسيج وحدها ، ومشتلاً للعنصرية في صميمها ، حيث المواطنيّة يرسم حدودها دين يتّسم بالتستّر على الأقل، ويتاخم مختبراً بشرياً في حركة دائبة ، موصولة ، ومطامع مختلّة تغلي ابداً وتفور، ويتاخم اخيراً خليطاً - نقيضاً من الواقعية والماديّة والعقليّة والإشراقيّة . ففي جنوبي لبنان ، وعلى عتبة بابنا بالذات ، ينصبّ الجهد على تجربة سياسية ولا اغرب . ذلك ان اسرائيل اذْ تصبح دولة ، تصبح عاصمة لليهودية جمعاء ، وعاصمة لشعب يمثّله في الجنسيّات كلها وفي اهمّ الحكومات ممثلون من الطراز الرفيع ، لشعبٍ يده طولى في سياسة الولايات المتحدة

والمملكة المتحدة، وفي سياسة دول كثُر أُخر؛ فضلاً عمّا يملكه هذا الشعب من موارد طائلة ، واواصر تتناهى سرّاً وعلانية على مدى الأرض . وحسبنا ان نفصح عن ذلك ، حسبنا ان نتأمل في ما لهذي الدولة المنافية للتاريخ (والثورية معاً) من طابع فريد ، حتى نُبرز للعيان ما تثيره في لبنان من هموم سياسيّة واقتصادية واجتماعية ، بات لا يجوز ان يجهلها اللبناني الواعي .

من جهتي ، قلت وكتبت عشرات المرّات ما احسبه الحقيقة عن اسرائيل . فحذارِ حذارِ جارتنا الجديدة ، لأن جارتنا الجديدة ستطالعنا بالأخطار على صنوفها ، سواء اكانت تتقدّم في خطّ مطامحها تقدماً ميسور الاطّراد ، أم كانت تعاني الضيق . ونحن مهما عملنا ، فلن نؤتى الراحة بعد اليوم ، أو لن نؤتاها طويلة الأمد على الاقل. هذا ما ينبغي ان نجاهر اللبنانيين به ، لأنه الحقيقة عينها .

كما ان للحضور الاسرائيلي ، قريباً منّا ، عواقب لا حدّ لها ، تتناول مستقبلنا السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ناهيك بعواقبه على الصعيد الدولي . وجميع الامم التي يتشعّب فيها نفوذ اسرائيل ، وفي طليعتها الولايات المتحدة ، باتت الآن تنظر بمنظار آخر الى هذه الناحية من الارض . فلا الرزايا التي حلّت بالامكنة المقدّسة ، ولا الصروف التي منيت بها أورشليم ، استطاعت ان تلفت الانظار وتسترعي الخواطر ، بقدر ما لفتتها واسترعتها اسرائيل . لأن الخواطر قد هدّأتها دعايات حاذقة

وألاعيب. لكنّ هذا لا يثنينا عن ان نأمل باليقظة .

– وسواء كان الأمر أمر دفاع وطني ، أو صناعة ،أو تجارة ، أو زراعة ، أو مال ، أو ما شئتم ان يكون ؛ وسواء كانت الحدود مشرعة او موصدة ، فكلها معضلات جديدة تجابهنا بحكم جوار اسرائيل . لأن اسرائيل جعلت من التوطين الممنهَج والإعمار الحثيث محوراً لسياسة احتلال وانبساط ومدى حيويّ . فكلما زاد سكانها زاد ثقلها على الحدود ، وباتت الحدود بحاجة الى مزيد الحماية ، لتصمد بوجه ما يزيد من ضغط .

ان استدعاء السكان الى اسرائيل وحشدهم فيها هو بالتحديد عالمي مثلما هي عالميّة (على الرغم من وحدانيّة أرومتها) . وهو عنصريّ مثلما هي عنصريّة . انه يتبدّى ، في آن معاً ، بتجنيد عسكري شامل ينضوي اليه حفداء الذريّات اليهودية المقيمة في الغرب منذ أوغسطس وقبله ، أو منذ ڤسباسيان وتيتوس. فالجيش الذي يحمي اسرائيل قوامه إذن يهود أجانب، شئنا ذلك أو ابينا . إنهم ألمان وروس وبولونيون وانكليز وتشيكيون وهنغاريون ورومانيون وآخرون كثيرون سواهم ، تؤججهم كلهم مطامع ادهى بكثير من مطامع الغرب قبلاً . كما ان سكان اسرائيل سيلبثون في معظمهم خليطاً عُجاباً من غربيّين لم يتمثّلهم الغرب ، رغم الجهود المديدة ، فعافوا الغرب بروح من ليس له وطن يحوشه .

اما على الصعيد الاقتصادي فإن اسرائيل لا يلين لها عيش

دون صناعة ضخمة . فاذا هي صنّعت نفسها بما لديها من وسائل تقنيّة وماليّة ، اكتسحت جوارها بأسره وقضت على كل شيء. واسرائيل ، من جهة اخرى ، لا تستطيع التنفس بدون تجارة مكثفة . وها ان تجارتها تفيد من علائق لها وصلات ، من حضور في العالم واسواق ، من استلافات شتّى وتيسيرات . واخالكم تدركون تلك الأولويات والامتيازات التي تنشأ وسوف تنشأ من وحدة متينة كهذه الوحدة في العنصر ، في المطامح ، وفي المصالح. ولسوف تكون التجارة الاسرائيلية ، في شرقيّ المتوسط ، بفعل ما توفره لها الدولة من حوافز ، تحدّياً لا مناص منه ، لكل المشروعات ، لكل المرافىء ، لكل التجارات والوكالات ، ولكل المهن التي تقتضي خدمة معيّنة .

وبعد ، فشأن اسرائيل ، عند ابواب آسيا ، شأن الخميرة الفاسدة ، تعتمل فيها ريحة فتنة بخِرة . اذ لا يمكن التصور كم الثورة تؤاتي اسرائيل وكم تخدم غائيّ اهدافها. فهي برمّتها مختبر اجتماعي وحقل تجارب لأولئك الذين يعتمدون في نشاطهم الفكري على تخصّص بالغ في علم الاجتماع اليهودي ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

وهناك من يعتقد مستخفاً ان الاجيال التالية من اسرائيل لن تكون كالجيل الأول ، وانه ذهاباً من الجيل الثالث تبدأ مرحلة الانحلال . هؤلاء لن نشاطرهم رأيهم السقيم . اذ ان في استطاعة الشتيت الصهيوني في العالم ان يرفد اسرائيل بروافده الى ما شاء

الله . امّا ما سوف يكون للمناخ الطبيعي والاجتماعي والخلقي من تأثيرات في اسرائيل على مرّ الزمن ، فليس من يستطيع تكهّنه ، علماً بأن تكهّنه ضرب من الاجتراء . لكني أحرص على القول ، ههنا، بعد ما كتبته مرّات ومرّات، إني في تحذيري لبنان وجيران اسرائيل من مصمّمات اسرائيل ، لا أدعو على الاسرائيليين وعلى اليهود عموماً بالويل والثبور . معاذ الله من هذا الموقف الحقير الآثم ! نحن ندعو لهم باليمن والازدهار ، شريطة ألّا يكون يمنهم على حسابنا ، وألا يأتينا الشقاء على يدهم. وهنا المأساة.بهذا نبدو اكرم شيماً من أمم كثيرة واعدل.

فناحية العالم القديم ، تلك التي ينزلها العرب اليوم ،هي الناحية التي قوبل فيها اليهود بمزيد الرحابة وأقل الجور ، منذ السيطرة البيزنطية ، منذ الاسلام ، بل على مرّ التاريخ . هناك تجلّت روح الأخوة ازاءهم ، وهناك صينت الكرامة الانسانية ، كما لم تتجلّ ولم تصَن في أي مكان آخر .

وها ان لبنان ليس فيه لليهود أي اضطهاد ، ولن يكون فيه . ومواطنونا اليهود أولاء خير من يشهد على ذلك . فنحن من الصهيونية لا من اليهودية نحترس. والّا تنكّرنا لعلة وجودنا ومبادئنا الأسّ ، وتنكرنا لتقليدنا الفكري والديني الثابت ، ولتقليدنا السياسيّ المتين .

ولعلّ هذه العبرة الحاسمة ، من لبنان ، ما كان ينبغي ان يحول دون قيام الدولة الاسرائيلية في عصرنا هذا ، وعلى هذا

النحو المنافي للتاريخ . ولعلّ ما كان ينبغي ان يحول دون قيامها ذلك البرهان الذي نقيمه على المزايا المبدئية التي تتحلى بها حكومة تتوازن فيها الطوائف والاقليات ، لأن هذه الطوائف والاقليات تنال كلها حقوقها .

ليس من يجهد مثلنا في أن يكون موضوعياً في حكمه على اسرائيل . وثمّة ، رغم الظواهر ، لاصهيونيون كثر بين عقلاء اليهود ، ممّن يرون من الشذوذ المحفوف بالمخاطر ان يتمتّع اليهود في آن معاً بحكومة ذاتية وباعضاء في حكومات العالم وهيئاته ، اي ان يكون لهم دولتهم ، وان يمارسوا السلطة لدى الآخرين، مع ما يثيره هذا الوضع الزائف ، الجسور ، من شبهات ولَبس.

امّا بعد فالوقائع هي هنا ، وهي اوضح من بلج النهار . والاخطار التي تحيق بنا هي اخطار تثير الخشية بقدر ما هي أمرٌ يقين . ومن لا يخشاها يُحسب ساذجاً طيب القلب .

ولبنان، في حالته الراهنة، تراه يشقّ عليه ان يرسّخ ابناءه في ارضه . فها ان الهجرة ، وهي تطّرد منذ عهد الفينيقيين ، ولو انها كُبحت الى حين ، ها انها تعود لتصبح مدعاة قلق . فيما نرى اسرائيل ، اسرائيل التي لم تخصّها الطبيعة بما حبَت به لبنان ، بل خصّتها بأرض يباب عقيم ، نراها تعلن لسنة ١٩٥٣، وابتداء من العام الآتي ، توطين ٦٠٠٠٠٠ مهاجر في اراضيها . يثبت ذلك رجوعنا الى ما تبثّه اليوم الدعاية الاسرائيلية في الولايات المتحدة، توخّياً للحصول على قرض بنصف مليار دولار

والحكومة الاميركية بدورها تهب اسرائيـل من الدولارات عشرات الملايين (وقد بلغ الاعتماد الجاري خمسين مليوناً على ما اظن) تشجيعاً للهجرة اليها ليس إلّا ، ولكي تتضاءل التقنينات طبعاً وتتزايد القِدر في الغليان .

ولكن أفلا يدور في خلد واشنطن وولاية نيويورك بالأخص ان هذا من شأنه ان يمهّد سبل الانفجار والحرب ؟

من هنا كانت مأمولات لبنان وجيران اسرائيـل الأخر مأمولات جد حالكة . ولنضع نصب أعيننا ان اسرائيل ، حيث المرء يؤتى بالكاد شبعته ، وحيث التقنين والاسعار أشدّ صرامة وارتفاعاً منها في انكلترا ، وحيث العملة تـتردّى على الرغم مما تفيضه اميركا من دولارات ، اسرائيل هذه تعرّض نفسها ، بسياستها التوطينية ، لأسوإ المحتملات ، تعرّض نفسها راضية جذلى، حتى يتوافر لها العدد الوفر مهما كلّف الأمر. وهي بذلك تسفر عن مبيت نياتها وتحتم العدوانات من جديد .

فأين وطن بلفور القومي ؟ وأين حرمته لحقوق الآخرين ؟ وأين تلك الصور الوادعة للعيلة التوراتيّة في دفء البيت ؟

انه بلد مدجّج يكتدّنا ، ويزداد تدججاً يوماً بعد يوم . انه نسوة مجنّدات. انه تصاميم للمستقبل تنفث روح العنف والغزوات. انه جموح مطامح يردّ ذرائعه الى تلك الايام البعاد ، أيام داود وسليمان . انه اخيراً خمسة عشر مليون نسمة ، ممّن لا اطول من باعهم في السياسة والمال ، يضرمون هـذي النار المقدسة — أو

هذا اللهب — في معظم بلدان الارض . ولعلّنا يحسن ان نعلم ان اليهود قد بلغوا مليونين في روسيا السوفياتية واربعة ملايين في ولاية نيويورك ، وهي اقوى ولاية تحت العلم المرصّع بالنجـوم ، حيث الفوز ، كل فوز ، مرهون بهم .

الى الكارثة صائر ولا شك تسامح الدول الاعمى في الهجرة الى اسرائيل. وهو ، بين العوامل التي قد تفضي يوماً الى الحرب ، واحد من اقلّها ذيوعاً واحفلها بالمحاذير .

وما دامت اسرائيل ماضية في نهجها هذا، فنهجها هذا معناه انها تستبيح دمار الارض في سبيل خلاصها. ولن نذهب الى القول إنها معوّلة على ذلك ، فمجرّد التفكير فيه يردينا في قلق عميق . لكنها ، على كل حال ، تنحو نحواً هذا معناه . وحسبنا للتيقّن ان نتأنّى في قراءة الصفحات الخمسين او الستين الأُول من النشرة الرسمية السنوية في اسرائيل ، لسنة ١٩٥٠ ، وان نقابل هذه الوثيقة بالوقائع . وليس هذا من النزوة الاسرائيلية وجهها الأغرب . وهاكم المثال :

« ليست الأمة الاسرائيلية وحدة سياسية وقومية فحسب . بل هي ، منذ ظهورها لأول مرة على مسرح التاريخ ، تجسيد للارادة الخلقية والرؤيا التاريخية .

« وتاريخ اليهود لا يمكن اكتناهه ، واكتناه كفاح اليهود من اجل الحياة، وما وقفوه من مواقف في شتى العصور والامصار، سواء يوم كانوا أمّة مترسخة في ارضها بالذات ، على كثير أو

قليل من الاستقلال الاداري ، أو يوم باتوا في المنفى ذريّة تائهة مبدّدة، الّا اذا ادركنا وحدة الشعب العقيدية في كفاحه العنيد . وكفاحه هذا ليس اقتصادياً وسياسياً وحربياً وحسب ، بل هو ايضاً كفاح روحي وخلقي وفكري ، خاضه الشعب اليهودي بلا هوادة ، منذ اقدم العصور ، وهو مستمرّ به حتى انقضاء العصور ، وحتى تتم الرؤيا » .

هذا غيض من فيض ، لا يعطي سوى فكرة يسيرة عن المجموع . وهو مقتطف من محاضرة لبن غوريون عن تنشئة الجيش والشعب ، أُلقيت على الاركان وكبار الضباط في « جيش الدفاع عن اسرائيل » . وهذه المقتطفات تملأ نيفاً وثلاثين صفحة كثيفة من مستهلّ النشرة الرسمية السنوية . فيا ليت كل سياسيّ لبناني ، ان لم نقل كل لبنانيّ، يلمّ بها .

وهكذا يبدو مستقبل لبنان ، حيال اسرائيل ، مستقبلاً حالك الجوانب . ولنا ما يدعو حقاً الى المخاوف ، في السلم أو في الحرب على السواء . فاذا نحن لم نتعمق في تقليب المعضلة وفهمها، ولم يتعمق في تقليبها وفهمها أولئك الذين يصنعون المصير، فقد تتحقق يوماً كل مخاوفنا ، حتى ابعدها خطراً . لعل في ذلك ضرباً من الغيب سرّه في ضمير الانبياء .

ولنباعد الآن ابصارنا حتى على الصعيد المتوسطي .

لبنان في العالم المتوسطي

نعلم ان لبنان جمهورية بحرية صغيرة تترامى على مئتي كيلومتر

شطاً ، وعلى خمسين في البرّ الداخلي . فلبنان اذن بطبيعته موسوم بالميسم المتوسطي .

وتبعاً لما يعتبر الغربيون لبنان من الشرق الأدنى او من الشرق الأوسط ، يقرّون له بميسمه هذا ، او يسلخونه فكرياً واجتماعياً من البحر . ذلك ان التحديد الحالي للشرق الاوسط تحديد مغاير للواقع ، ينسف ضمناً التوازن المتوسطي ، وينتزع بصورة تعسفية مصر وسوريا ولبنان وسائر بلدان شرقي المتوسط من مناخ بحرتها الأم ، ليزجّ بها ، خلافاً لطبيعة الامور ، في مناخ المحيط الهندي .

هنا تكمن الغلطة الفاجعة، تلك التي تتناول بعواقبها الحضارة والسياسة، اذ تُخضع الحضارة والسياسة المتوسطيّتين، وتخضعها بصورة حمقاء، لموافقات نسبيّة، تحتّمها ستراتيجية لها فروضها، ولها منافذها دون ريب .

* * *

ان لبنان إذن ، والشرق الادنى بأجمعه ، هما ، في الدرجة الاولى ، من حق العالم المتوسطي . اما الشرق الاوسط فهو من حق المحيط الهندي. اليست البحار اليوم هي التي تؤلّف المناطق القاريّة ؟

ولا بأس ان نعزّز حديثنا فنكرّر الآن ما طالما قلناه في احاديث أُخر : الشرق الادنى يُعرف اجمالاً بطلاته على الابيض المتوسط . وعلى المحيط الهندي مطلات الشرق الاوسط . امّا

الشرق الاقصى فعلى المحيط الهادي مطلاته . انها كوى تطرّد اتساعاً ، لكنها تشارف مشاهد مختلفة ومختلف عادات .

فميزة الشرق الادنى انه افريقي أسيوي أوروبي معاً . يمتدّ جغرافياً وتاريخياً من مصر حتى اليونان . فيما الشرقان الآخران، الاوسط والاقصى ، اسيويان ليس غير . وطرح المسألة على هذا النحو يعني توضيحها كفاية التوضيح .

وينتثر العرب من الاطلسي حتى شط العرب . وبعده ليس من عرب قط . تماماً كما ينتثر الاوروبيون حتى تركيّا . والاتراك يشكّلون بعضاً من اعضاء الجمعية الاوروبية في ستراسبورغ . فكيف يرتاحون الى وضعهم اذا هم تحوّلوا الى الشرق الاوسط واقتصروا عليه . امّا الفرس ، وهم يدانون جبال القفقاس ، فبالكاد قيّض لهم بعد داريوس ان يشاهدوا البحر المتوسط .

ونعود الينا ، نحن اللبنانيين، فنقول: ان مستقبلنا، على الصعيد المتوسطي ، هو حصيلة ماضينا قبل كل شيء . فمنذ فجر التاريخ لا يفتأ البحر المتوسط ميداناً رحباً للملاحة الفينيقية. ولا تعوزنا الشواهد على ذلك ولا النصوص ، احدثها تلك المقدمة البليغة التي قدّم بها ابرهيم عبدالعال كتاب الابوين بوادبار وموترد والسيد لوفري ، عن مرفإ صيدون وسائر المرافىء العريقة في شرقي المتوسط .

امّا اليوم ، وبعدما أوجزت السرعة في أبعاد هذا البحر ، فمستقبلنا بات رهناً بالتضامن المتوسّطي . ولا عاد في الامكان

تجزئة المتوسط كمِن قبل ، دون الاساءة الى مشاطئيه أجمعين ، ودون ان نقسو ونمعن في القساوة . وها ان حضارات بأسرها ، حضارات نابعة من هذا المناخ المتوسّطي ، نراها اليوم عرضة للمحاذير .

فكم يجب علينا ، وعلى سوريا ومصر معنا ، ان نذود عن شخصيتنا المتوسطية في كنف الجامعة العربية ، وإلّا تردّينا في البلبال وطوتنا الظلمة . وليست هذه الالفاظ الرنانة من المغالاة بشيء، لوصف ما قد يستهدفنا من افتقار وانعزال سياسي. فنحن من الشرق الادنى نصفه السويّ، وتاريخ الشرق الادنى لا أعطر من ذكراه . امّا في الشرق الاوسط فنحن لسنا بشيء يذكر ، وليست حمايتنا هناك الا من قبيل حماية المصالح العابرة . ألا ليت كلّا منا يفهم هذا حق الفهم !

مذ ذاك يتراحب المستقبل امام لبنان ويتألق . فاذا رسالتنا في التاريخ تلتقي رسالتنا في الوسط الجغرافي ، رسالة انفتاح وواجب ، حيال الفكر والروح معاً ، الى رعاية تراث تناهى على آلاف السنين ، فإلى حمايته من مصمّمات الفناء .

نحن مدعوون للعالمية مذ كان البحر المتوسط من العالم كل العالم . امّا وقد صار بحرة ليس غير ، وصار يمكن الذهاب من اوروبا الى افريقيا في ساعة طيران ، فالحجة أولى ان لا يشطر هذا البحر في وسطه شطرين : شمالاً الى جنوب أو شرقاً الى غرب . فبدون هذه العروة الاساسية لا عزّة للعرب ولا

امكان حياة . وليس في وسعنا تفكيك هذه العروة دون ان نمسي رقيقاً لرقيق . فالأرض تتقلص سريعاً ، بحيث ان الطواف حولها ، على المستوى المتوسطي ، صار ممكناً في يوم ونصف .

وبدلاً من ان نتطلع صوب اندونيسيا (وهي بالنسبة الى لبنان كما لو نتطلع صوب الفيليبين بدلاً من اسبانيا) أحرِ بنا ان نستمد من المتوسط تلك القوى المكملة. فهي، بمساهمة الغربيين الكبار ، تنقذ ما خلفته الديانات التوحيدية من حضارات . من اجل هذه الدعوة بالذات ، يبدو لبنان وكأنه الملتقى الامثل ، شرط ان نسمو فيه بأنصبة الروح الى طبقاتها العلى .

واذا نحن اعتصمنا بالتنظيم وثابرنا على الجهد ، اتاح لنا المستقبل امكانات لا حدّ لها، تخدم الحضارات المتوسطيّة في النطاق المتوسطي . وما اقرب يوماً يغدو فيه الذهاب الى كبريات العواصم الاوروبية والإياب منها ، تماماً كالذهاب الى المدن السورية ، عندما تتلطف سوريا بالقبول .

لبنان في العالم

يبقى حضورنا في العالم .

من دأبنا ان نتنقل على الدوام ، وألا ننتهي من طواف حول العالم حتى نسارع الى طواف جديد ، وان نختار لنا منزلاً ننزله في اباعد الارض .

فالهجرة والاسفار تستنهض النشاط اللبناني تحت كل سماء

وتتعهده. وما من بلد الا وفيه لبنانيون. ذلك قديم قدَم التاريخ. لكن المستقبل يعدّنا اكثر فاكثر للسعي والتجوال . وهيهات ان نقصر نشاطنا على ارضنا الصغيرة، الضيقة، دون ان تُسدّ علينا منافذ الهواء .

ولئن كان على الفينيقيين ان يبحروا الاشهر الطوال ، بحثاً عن سوق ضائعة او شاطىء مضياف ، فإن حفداءهم يفيدون اليوم من سرعة الوسائل افضل افادة . وما لوّحوا مرة ، في لبنان ، بتحديد عدد السيارات الاّ خلتهم يريدون بلبنان إبطاء دورته الدموية . إن شعباً تعوزه المواد الاولية وتعوزه الصناعة ، ويحرز الى ذلك نجاحاً باهراً في الابقاء على مستوى عيشه وفي رفع هذا المستوى ، ان شعباً هذي حاله ينبغي ألا تماحنه حكوماته بزعوم احتراساتها ، على الرغم مما يلمّ به احياناً من عابر الضائقات . فما اشبه هذا الشعب ، مجرّداً من كل سيارة وطائرة ومركب ، بمُقعد لا زال يقطع المسافات الشاسعة على يديه .

والمستقبل يتبدّى للبنانيين تحت شعار الحركة ، كما لم يتبدّ قط . ولا قبَل لنا ، ما لم نركب رأسنا ، بمنع قومنا عنوة من الارتحال، لأننا اذ ّاك نجلب الضيق لذاتنا ونتعمّد اثارة البلبال . على انه من الواجب علينا ان نيسّر اصناف العمل كلها ، في عجيب اصطفائها ، في تحوّلاتها التي لا تحدّ . وهذا بديهي . وعلى الدولة ان تسلّم بما لا بدّ من التسليم به ، فتقلع عن سياسة اقتصادية ومالية تكبّلها القيود ، وتعتنق الحرية مبدأ لها حتى

آخر حدوده . وإلّا فإنها ، لفرط حرصها على بعض المبادىء المزعومة ، تغدو مسؤولة عن تفاقم الهجرة ، وعمّا تستتبعه من وخيم العواقب . ولعل أفضل ما يرجى في هذا السبيل ترك اللبناني يسافر على هواه ، شرط ان نعدّ له بلاده على نحو يلائم طبيعته ، ويهيب به أن لا يرحل ، واذا رحل ان يعود .

ولعمري ان شعباً يستمدّ من الخارج سبعة أثمان موارده ، لا يعقل حصره ضمن سياسة اقتصادية مقفلة تتمذهب بالحماية والتفتيش . وإلاّ قضى عليه وضعه ان يموت اختناقاً . فكم ينبغي علينا اقتصار الأنظمة المكبّلة على حدّها الادنى ، ولا سيا ان ابعاد بلادنا مؤاتية لهذا الاقتصار ، فضلاً عمّا عندنا من ضآلة تصنيع ، وان الانتاج الضخم المتساوق ليس من شيمة اللبنانيين ولا من مزاجهم ، وليس من عبقريتهم اذا شئت . فالتنوّع ، هنا ، مشفوعاً بالمهارة ، وحده خشبة الخلاص .

وكم يحسن ان لا يتخلّى تفاحنا عن تساوي نوعيته وعن مياسم الجودة فيه . امّا ان ينتهي اللبنانيون الى المصنع ، وان ينخبلوا في ترجيع حركة واحدة ، فذلك ولا شك أقل ما يجدر بهم لأن ذلك من دأب الانسان ـ الآلة وليس من دأبنا على الاطلاق . ولن يبسم لنا فيه أيّ غد .

وكما ان لكل انسان ميلاً ودعوة ، كذلك لكل شعب سبيل . ونحن لن نلقى في الحياة الراتبة والوضيعة لا الألق ولا الجمال . ولعلّ افضل نهج تعليميّ ننهجه ، يكون في الكشف عن

المؤهلات الفردية والمواهب ، ويكون في استنهاضها وحفزها على التفتح والإزهار . وما من اعتقاد ممعن في الخطل مثل اعتقادنا بأن هناك سنناً اقتصادية واجتماعية متماثلة ، موحّدة ، على وجه الارض . فكل دماغ له أفكاره ، ولكل جسد تحديده المستمدّ من إمكانات جموده او حركته . فالعامل الغربي في الصناعات المكنيّة قد يكتفي بترداد الحركة عينها الى ما شاء الله . امّا اللبناني فينشد المخاطرة ، كما ينشد الجدّة والمغامرة والاغتراب . وكم يكون علم الاحصاء عندنا عقوقاً . اقول ذلك وكلّي حرمة للاحصائيين وقواعدهم . وأعرف بينهم من هم حقاً في غاية الموهبة والعلم . ألا فليخبروني بماذا يبدأ الاحصاء الجدّي عندنا ، حيث الانسان قلّما يكون ذا مهنة واحدة ، وحيث التنوّع والحضور انّى كان هو المقياس ، وحيث كلّ من اللبنانيين ، الموجودين في هذه القاعة مثلاً ، يمتهن ، شأني انا ، ثلاث أو اربع مهن منتظمة وعلى تمام الاختلاف ؟

البراعة كل البراعة ان نكتشف الدعوات والمواهب ، بدلاً من ان نمتهنها ونثبّطها ، ثم ان نفسح لها في مجال العمل . البراعة كل البراعة ان نرفع معنويات اللبنانيين حتى الهوس . فأسوأ ما نعطاه من حكومات ، في هذه البلاد ، هي تلك التي تدفع بالشعب الى التشاؤم . انه لتوجيه أسّ حريّ بالاعتماد ، يبرّر على صعيد الاحصاء أولى الجهود واشدّها اندفاعاً .

وبعد ، هل أستعيد الآن ما حدّدت به لبنان يوماً على سبيل

التندّر : بلاد قادة بلا جنود ، قلت . فرقة قادة ، ماذا يُرجى منها اذا هي سُخّرت لأعمال الخدمة ؟

مستقبل لبنان ما زال في طور التفتح . لذا وجب ، قبل كل شيء، ان نوفّر لهذا الشعب، تبعاً لحالاته، قدراً من المعارف العملية وعميم الافكار ، وأن نوفّر له تربية وفلسفة ومناقبيّة من أرفع الطبقات ، وان نتيح له التنقّل كما يروم ، كي يتدبّر أمره بالتي هي افضل .

فالحرية هي حجر الزاوية للسياسة التي تؤاتينا . وهي حجر الزاوية لما نبتغي من اقتصاد. عنينا بها الحريات الشرعية في إطار النظام . من هنا خلافنا المتأصّل مع أنظمة الطغيان اياً كانت . فنحن بلد الدأب الحرّ بالذات، ونحن اصدقاء لمشايعيه اينما كانوا . بهذا الشرط يؤدي لبنان رسالته — وله حتماً رسالة — أكان الأمر منوطاً به، ام ببلدان الجامعة العربية، ام بالبلدان المتوسطية، ام بما يتيحه الواجب الدولي في الكون ، على يد الأمم المتحدة او على غير يدها .

بلد صغير ، حقاً جدّ صغير ، ولربما هو امة صغيرة ، لكنه ليس البتّة بشعب صغير .

١٧ كانون الاول سنة ١٩٥١

لبنان

في شخصيته وحضوره

● هذه المحاضرة كانت آخر محاضرة القاها ميشال شيحا في الندوة ، بعدها اعتلى منبرها مرّة جديدة يوم اقامت له الندوة حفلة تكريم في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٥٤ تكلم فيها نخبة من شخصيات لبنان الفكرية ، فقال كلمة القلب والعقل مغمورة بالامتنان والمحبة ... وحدس الوداع .

الكلمة التي قدّم بها مؤسس الندوة لمحاضرة ميشال شيحا
« لبنان في شخصيته وحضوره »

ايها الصديق ،

تعتزّ الندوة اللبنانية بافتتاح موسمها ، هذا العام ، بالمحاضرة التي سنسمعها منك بعد حين: لبنان في شخصيته وحضوره . فما اشبه ذلك، على حد قول صحيفة « العمل »، البارحة ، بقداس « الروح القدس » الذي يستبق افتتاح الكليات ، وبه تُستهمى نعَمُ السماء على نشاط العام الدراسي . وانه لاجتراء منّا ان نعمد الى تقديمك الى هذا الحفل الذي أمّ ندوتنا لكي يمحضك مودّته واعجابه ، ولكي ينهل من افكارك الثريّة المحببة .

من على هذا المنبر ، جاء في ختام محاضرتك السابقة ، عن لبنان قولك هذا :

« بلد صغير ، حقاً جدّ صغير ، ولربّما هو امة صغيرة ، لكنه ليس البتّة بشعب صغير » .

فمن هذا الشعب ، لا شك انك تنوي تحديثنا ، العشية ، لتعالننا انه شعب كبير . وبهذا الشعب نشاطرك نحن ايمانك . امّا أن نسمعك تبثّه فينا ، وانت من هذا الشعب الدائب النشيط وجهه الذي يتحلّى بعمق التجربة المستخلصة من الحياة والكتاب ، امّا أن نسمعك انت تبثّه فينا ، فايماننا اذ ذاك ليضطرم ويتوثّق . فلقد أوتيت ، وانت الشاعر ، (لم ننسَ انك صاحب («بيت الحقول») لقد أوتيت أن تستشفّ ما يصحّ ان يدعى بروح الشعوب ، وها انت تحاول ان تضعه في متناول وعينا .

اننا نمنّي النفس ان يقدّر لقدسيّ ارتناحك أمام شخصية لبنان ان يغتمر قلوب مستمعيك بفعل ذاك الألق الأخّاذ الذي يتألق في بيانك ، وأن يتناهى غداً الى قلوب أولئك الذين ينبغي ان يهمّهم مصير لبناننا العزيز .

ونحن، اذ نشكر لك من الصميم كريم اسهامك، نفسح بينك وبين الحضور الكرام.

ميشال أسمر

سيداتي ، سادتي ،

لئن كان عليّ ، وبعد تردّد ، ان اتوّج محاضرتي بكلمة ، لآتينّ اليكم هذين البيتين من « فيدر » :

« منذ متى ، يا سيد ، صرتم تخشون محضر
هذه الأمكنة الوادعة ، العزيزة على طفولتكم ؟ »

ولَهيَ على كهولتنا أعزّ وأعذب.

لبنان معين لا ينضب . ومن خلاله يمكن ان نستشفّ العالم، مثلما أستشفُّ البحر من وراء نافذتي على المطل .

والى ذلك فكم أخشى ، لفرط التبحّر في هذه البلاد والكلام عليها ، ان أشيع الملل في السامع والقارىء على السواء . لكن المادة اللبنانية ، تحت مظاهرها البسيطة ، تترامى على أبعاد التاريخ . فنحن ، مذ كنّا ، شهود على نشأة الشعوب ، شهود بالوراثة وبالغريزة . ونحن لفي مطرح من الأرض والزمان يتيح لنا ، اذ نتكلم على ذاتنا، ان نتكلم على كل شيء. قليلة هي الأمم التي تتمتع بهذا الامتياز . فهو من نصيب بعض الشطآن المختارة والأماكن السنيّة والمشارف الخالدات .

ونحن من أجـدر الشعوب في اكتناه التاريخ ، وفي تلقـين عبَره ، لأننا عشناه. لكننا في الوقت نفسه ، ويا عجباه ، نجهل هذا التاريخ أكثر من كثيرين أُخر .

في رأيي ان هذا العنوان اللامحدود : « لبنان في شخصيته وحضوره » ، يتيح لي التجوال معكم حسبما أروم. فبعد أحاديث جمّة ، وجمّة محاضرات ، بتّ لا أبغي سوى تسليط ضوء أوفى على هذه البلاد ، وابراز شخصيتها ووجهها من بعض الجوانب ، وتوضيح الفذّ من قسماتها توضيحاً أدق ، واشراككم في إطلالات جدد على أفقنا ومشاهد جدد. وكمن يضع بياناً مجملاً بموجوداته ، كذلك ينبغي تبيان ما نعرفه وما نشعر به ، عاماً بعد عام .

ان فينيقيا هي البحر اولاً . وجبل لبنان مـا هو بتحديده سوى الجبل . ومِن تداخل البحر والجبل كانت جمهوريتنا .

ففي أمس غبر عمدَ التسلطن العثماني الى اغلاق البحر، لفرط ما كان يخشاه . فكان ان تخطّى الجبلُ البحرَ ، وأضحى ملاذاً للحريات . بينما راحت السلاسل توصد المرافىء في ايام خلفـاء سليمان القانوني .

أن نظهر البحر والجبل متحدَين كان ذلك من الأنسب . أفلسنا نرى الجبل اللبناني ، في مدى مئتي كيلومتر ، يهبط البحر بين حين وحين ، وفي البحر يغتسل ؟

ثمة دوماً ، في البلد الصغير أو الكبير ، جوانب مغمورة دون

سواها ، فينبغي استجلاؤها من جديد ، بتجديد كلمات وصور . وانه ليستطاع دوماً تسليط اضواء جـدد على الاشياء . حسبنا تلك الموضوعات الكبرى لسادة الرسم والنحت ، موضوعـات طالما أعيد بدْعها وطالما رونقَها التجديد .

* * *

ـ إنما الحضور وقفٌ على مـا يميِّز ، وليس على مـا يختلط ويضيع. فلبنان واللبنانيون يتميّزون منذ البدء عن سائر المعمور تميزاً يخوّلنا أن ندعو بحضور لبناني قديم كالعالم .

والخرائط التأريخية ، بمختلف مراتب التعليم ، تتخذ منطلقها من مصر القديمة ، فترينا ساحلاً متوسطياً ذاهباً من دلتا النيل حتى لبنان لا أبعد . هناك يبدأ التاريخ بحقيقة معناه ، فلا يلبث ان يلقانا في دربـه . ثم يمتدّ المدى تدريجاً حتى يأتي المؤرخ فيستحوذ عليه ، فاذا تاريخ الشرق القديم كله على انبساط .

والى جـانب صروف لا تُحصى ، تداولتنا لا أقـول جميع الكرّات التي يرويها التاريخ ، بل تداولتنا كل المقاحم . فنحن لا نفتأ ابداً في قلب المعترك ، بهذا الشكل أو بذاك . والصفحة الاولى من « أطلسنا » ، تلك التي ساقهـا « ڤيدال لابلاش » الى التلاميذ والطلاب ، والتي يعاد طبعها منذ اعوام ستين ، تشير الى طريق الحملات المصرية نحو الفرات ، ما بين صور وحرمون، منذ الألف الرابع قبل تاريخنا .

وهكذا ترتسم حيال أنظارنا ، منـذ الخطى الأولى ، تلك

الطريق العالمية ، القابلة الامتداد، والتي هي ابداً في مستوى العالم المعروف . هذه الطريق ، في جنوبها ، سوف تصبح يوم يتمكن فردينان دي ليسبس من شقها طريق السويس البحرية. ولسوف تكون عرضة لطوارق السياسة ومكاره الحروب ، بحيث كان لا بدّ ، في سنة ١٩٣٩ وفي سنة ١٩١٤، ولفترة وقت، من الرجوع الى سلوك تلك الطريق الطويلة ، عبر رأس « الرجاء الصالح » .

لكن الاكتشافات وآونة السلم سرعان ما تعود بالانسان الى الطريق الأقرب . ومـا الطريق الأقرب، اليوم، سوى تلك التي تخترم الجوّ حرّة مثل النياسم . هذه الطريق تمرّ بلبنان ،فتصل ما بـين نيويورك ولندن وباريس من جهة ، والهند والصين وأوستراليا من جهة أخرى. امّا في ما عنى البحر ، فعلينا دون سوانا يتوقف ألا ندَع أية قومية مريضة تسدّه في وجه ابتداراتنا كما كانت الحال في ايام الباد شاه الحوالك . فان كان من شأن هذا الموضوع أن يروق اللبنانيين والسوى ، لنرسمنّ من أجلهم بعد قليل مفهوماً للقومية المعاصرة .

* * *

أفنحن مبالغون في قدرنا لأهمية بلدنا الصغير ؟ كلاّ دون ريب . ولئن نحن توسّمنا للبنان نحواً خاصاً ، فليس ذلك للنيل من العالم العربي ، بل رغبة منّا في مزيد تنويره. ولئن عمل العرب على إعاقة حركة المبادلات الدولية بحجة زائفة من حجج الاكتفاء الذاتي ، فماذا تكون حالهم في هذا العصر المكننَن السريع ؟

وعلى المرء ، كي يملأ حياته ، أن يدرك قبل كل شيء ماهية دعوته ، أن ينمي مؤهلاته ، وان ينهج سبيله . مثل هذا العمل، إن هو الاّ اذعان لحتمات الطبيعة . كذلك قل عن شواطئنا وما أُثر عن اهليهـا من حب للأسفار وحب للاغتراب ، ومن مَيل متوارث غريزي نحو التجارة والمبادلات ، ذاك الميل الذي يبثّ في العالم الحضور اللبناني .

ان الشعب اللبناني قلّما يماثل جيرانه الأدنين ، إنْ في الشمال وإن في الجنوب :فسهله اضيق من سهول جيرانه وجبله اعلى من جبالهم .

وثمة ملاحظة بليغة للمؤرخ الانكليزي المعاصر أرنولد توينبي ، في مؤلفه الضخم «دراسة في التاريخ ». فلقد أبدى بين الاسباب الأساسية لتطور الشعوب مـا أسماه بمهاز الضرورة ، أو حافز الإكراه (ضغط متّصل من الخارج) . وهذا في الخلاصة مـا عاناه لبنان ابداً، وما جعلنا ابداً نعيش في خطر، وفي مشقّة، ولا سيما اخـيراً في جوار مقـاطعـات تركية تأتمر بإمرة القسطنطينية . ممّا يفضي بالتالي الى نتيجة ظاهرة للعيان ، وهي ان قرانا المختلطة ، تلك التي تضمّ مثلاً دروزاً ومسيحيين، متآخين والحمد لله منذ أمد بعيد، لتبدو غالباً أصلب عرقاً من قرانا التي لا تشتمل الاّ على دروز لوحدهم او مسيحيين . ان الحياة الخشنة تطبع الشعب بطابع حاسم . فهي تنشّئه على المناقبية وتحنّكه . وهي تشدّد العزائم وتجدّ في جعل الانسان انساناً وتجيد .

وللبنانيّين كافة وطن واحـد هو البحر والجبل معـاً . فهم حفداء أولئك الجبليين البحّارة الذين يختلفون عن جيرانهم بأكثر من وجه . وددنا لو كان الأمر خلافاً لذلك . لكنه ليس بالأمر المستطاع . وهذا ما يدحض أوهام الذين يتصوّرون ان الشرق الادنى ، الأسيوي منه والافريقي ، هو من نسيج واحد . فبين عربي البحر وعربي القارة ، هناك البحر والجغرافيا ، شئنا ذلك او أبيناه – وهذا ما لا ينفي أية مودّة طبيعية متبادلة– ، كما ان هناك مـا يدفع بالواحد مزهواً الى اقـاصي الارض ، بينما يلتزم الآخر حياة الرعي والألبان. وهل يمكننا القول ان عربي العاهل السعودي ، وعربي اللواء نجيب ، وعربي الزعيم الشيشكلي كلهم ذاتُ سواسية؟.. كلا ، بكل تأكيد. فلكلٍ وجهه وخلقياته ، ولكل تقاليده وأمجاده . ان دمشق وبغداد والقاهرة تتضامّ ولا تتدامج . فأية عاصمة من الثلاث بلغت من النضج حداً يخوّلها التسلّط على الاثنتين الاخريين ؟

* * *

لبنان هو جمهورية بحرية متوسطية ، قبل كل شيء ، تتناهى على سحابة مئتي كيلومتر شطاً وخمسين لا أكثر في البرّ الداخلي. هذه كانت أبعاد فينيقيا بمختلف اسمائها منذ خمسة أو ستة آلاف عام . فلا البندقية ولا جنوى ، في القارة الاوروبية المواجهة ، تعدّتا في اوج عزهما هذه المقاييس .

ولبنان هو أمة بحرية في جوهره. وهو لكذلك اصلاً وبحكم الضرورة . وما الجبل عندنا سوى الحصن الذي ينيف على البحر

ويحميه . فما أشبه لبنان ، كل لبنان ، بقصر البحر في صيدون يومذاك . لقد عاش اسلافنا الألى في جزر صغار ، حيث ذادوا عن انفسهم ذود المستميت . فصور وصيدا كانتا تمتّان الى الجزُر بنسب وثيق . امّا ارواد فمن الجزر كانت وما زالت . نحن لا نخوض الآن بحثاً في السياسة بل في التاريخ . ونحن لا ندّعي بأية حال ضمّ ارواد الينا. لكنّ ما لا يسعنا اغفاله او إنكاره حرصاً على التاريخ ،أن فينيقيا تمتد من«الكرمل الى أرادوس» ، أي ارواد بالذات. فهلاّ كان لسوريا ان تتقبّل ذلك بصدر رحب ، وان تتفهمنا ، حباً لطرطوس واللاذقية ليس غير . وأسارع الى القول ، تفادياً لكل لَبس ، إنه ليسعد اللبنانيين ان يروا سوريا بحسب مرتجاهم ، جارةً على مزيد ازدهار. وما يتمنونه لها وما يبغون ، ان تلبث سوريا امينة على مصيرها ذاته ، وهي التي يتنازعها شرق وغرب .

ان ما يفصل العاصمة السورية عن البحر المتوسـط ، وما يفصل عنه مدن سوريا الرئيسة والشعب السوري قاطبة نكاد نقول ، لعلى الأكثر مئة او مئة وخمسون كيـلومتراً . فكيف يقابَل هذا بالجهل ، ولماذا سوريا تتجاهله ؟

هيهات الاضطلاع بسياسة لبنانية ،او باقتصاد سياسي لبناني ، اذا نحن انتقصنا دور البحر ودور القارات في وجودنا القومي . فالأنظار التي لا ترى سوى السلسلة الشرقية والأفق الشرقي لهي مصابة بكلل مزدوج.وما اشبه لبنان الشرقي بستار من الاشجار يواري الغابة (لكنه لسؤ الحظ ستار أجرد) . مهمتنا المقبلة ،

ومهمة سوريا ، ان نبعث في تلك السفوح والمنحدرات إعماراً من الخضرة والناس ، يبهرنا بحدود غير حدود الصحراء والريح .

* * *

سبق لنا ان نوّهنا بالقومية التي هي مظهر جماعي من مظاهر حب الذات . فهذه القوميـة التي اتسمت ، في القرن الاخـير خصوصاً ، بطابع السعة والثورية ، أحرِ بنا اليوم ان نتوخى عمقها ، فقد اتخذت لها نحواً آخر ووجهاً آخر . ان الحضور اللبناني ، ذاك الحضور الذي لا يطاله حصر ، بل ان حضور لبنان في آن معاً ، هنا وهناك وهنالك ، بفضل الهجرة عبر الزمان والمكان ، انما يسوقنا الى تقييم القومية تقييماً صحيحاً ، في هذا القرن العشرين ، حيث مفهوما الانسانية ووحدة العالم قد تولاّهما تطوّر ملحوظ . فعلينا ان نقيم الفارق بين قومية منهجية عنيدة وشعور لا أنبل منه ولا أولى ، هو الشعور القومي وحب البلاد .

فثمة وشائج نفس ووشائج جسد توثّق بين الانسان وبلاده ، بل توثق بين الانسان واقليمـه . وكما يشغف المرء ببيته ، او يستخصّ مقر آبائه واجداده اكثر مما يستخصّه المقر ، كذلك تراه شغوفاً بناحية من الارض ، بمشهد ، بقرية ، بضاحية ، وبما يترامى حولها من آفاق ، ثم لا يلبث شغفه هذا ان ينداح على الوطن بشتى أبعاده .

من المؤثر حقاً ان المرء يجد بلاده ، أياً كانت بلاده ، أحب البلدان اليه واحناها على قلبه . وهذا ما يصح في أصغر البلدان كما في اكبرها ، واكثر .

اما الشغف ببلاد هي في كـبر القـارة ، وقلّما تتوافر عنها المعلومات ، فهو أقرب الى القوميـة المصطنعـة ، حيث الشعور القومي ضرب من العُجب والكبرياء ، اكثر مما هو في قراره شغف وحب ، وحيث التضامن جماعي بطبيعته ، لأنه تضامن تستثيره الجماعة . ويوم لم تكن الاسفار الا على ظهور الخيل ، أو في العربات ، كان الاقليم الصغير ينعم بالأهمية في أعين ذويه ، لفرط ما كانت الاقاليم الأخر تبدو نائية .

ومنذ القرون الوسطى اخـذت القومية تنمو بنمو الملكية المركزة والتنظيم الاداري والطرقات والسرعة ، الى ان اتخذت ، منذ عهد ريشليو في فرنسا ، طابعها الحديث . بيد انها اليوم ، وبفعل السرعة والطرقات ، اخذت تعود القهقرى . فكأنما اقصى البطء وأقصى السرعة قد التقيا . وحتى هذا الربع من القرن شهدنا قومية عنيفة تنمو في ارجاء المعمور . لكنهـا قومية تُجووزت اليوم . والى هذا فالفرنسي او الالماني لا قبَل له بعد بحب الوطن الاوروبي ، حبّه لفرنسا او لألمانيا . كذلك قل عن الولايات المتحدة قبل اتحادها ، فقد تنازعت ولاياتها قومية غيرى ، على الرغم من حداثة تلك الولايات .

ومتى كان الوطن شاسع الجنبات انكفأ المرء الى حب الاقليم ، وعادت عرَضاً مع حب الاقليم الاقليمية واللامركزية .

ويوم يغدو العالم واحداً احد ، على فرض انه سيغدو يوماً ، او يوم يعود لا تتنازعه سوى قوتين جماعيتين او ثلاث (اما نسمع

دوماً بالقوة الثالثة ؟) اذّاك تتبدى الاوطان الصغرى من جديد في هوى مدينة ، او قرية ، او اقليم وضيـع . اما نحن اللبنانيين فنحن على هذا الشعور مقيمون مذ كنا . وما القومية ، بحسب تاريخ القرن التاسع عشر (ومبدإ القوميات الشهير) سوى نزوة من كبرياء قبـل كل شيء . بينما نحن نقول ، قبـل كل شيء ، بما هـو حب .

« اواه ، متى اعود فأرى ،

قريتي ، والموقد ، وسُحُب الدخان ،

وفي أي فصل ارى حاكورة بيتي الوادع ،

بيتي الذي يتبدّى لي بلاداً ، ويا حسنها من بلاد ؟ » .

أليس هذا الذي كتبه ده بللي من روما ، في القرن السادس عشر ، اليس هو نشيد المنفيّ والمهاجر ، ونشيد اللبناني الضارب في اقاصي الأمريك .

ونسائل النفس : يوم يداني العالم وحدته ، ترى أي وطن أرضي نوثره بالحب ؟ أهو « ارض البشر » لسانتكسبوري ، تلك الارض الهائمة بين النجوم ؟ أم يحمل الاقتصار على مطارح للحب اقـل تباديد ؟

ان للبنان ، بفضل الآلهة ، ما للاقليم من مدى ، حتى ان اللبناني في ميسوره ان يعرف بلاده ضيعةً ضيعة ، قمة قمة ، وواديا تلو واد . وفي ميسوره ان يحسبها كلها وكأنها بيته وحقله ومطارح حبه .

وبقدر ما تتلاشى الابعاد في ارضنا الآخـذة بالانكماش ، بقدر ذلك تبرز بعض الامكنة المختارة ، القليلة الانبساط ، مما يوائم طموح المرء الى ان يتحوّل «مواطناً عالمياً» . فاذا ما باتت الكرة الارضية بلداً لا غير ، بات الكلام على القومية متعذراً ، ما لم يكن كلامنا بالنسبة الى بشرية تستوطن كوكباً آخر . لكننا تبقى لنا « ذكريات تضوع من مسرح طفولتنا الهانىء » حيث نودّ حقاً ان نعيش وان نموت .

هذا الكلام ، يمليه علينا مفهوم القومية ، له اهميته بالنسبة الى العالم العربي المحموم . فاذا ما قيض للوحدة العربية ان تتحقق على الرغم مما يعترضها من صعاب جغرافية هي ابرز مما في اوروبا نفسها ؛ واذا ما استبقت هذه الوحدة اوانها ، فلعلّ من نتائجها ان تشد المصري والسوري والعراقي وساكن القاهرة ودمشق وبغداد كلاً الى مدينته واقليمه ، اكثر بكثير من ان تشدّه الى عالم مجهول . اذّاك تمسي الاقليميـة على مثـل عنف القومية المتطرفة . ويحدث بالتالي انشقاق اشبه بذاك الذي جعل الامويين ضحية بني العباس . التاريخ يعيد نفسه . امّا الحقيقة التاريخية فانها تكمن في ألفة حميمة .

والعبرة من ذلك ألا يجب أن نتشوّف بابصارنا الى البعيـد الشاسع من الارض ، الاّ اذا كـنا نرمي الى انشاء « قـوة » جماعية ، لا وطن .

ان الخلط بين القومية العقيدية وحب الوطن ما زال شائعاً .

لكنما الغد كفيل بأن يعفوه. واني لأسر اليكم ان لبناننا ، كما هو ، يبدو لي ، على صعيد المستقبل وبالنسبة الى أهليه ، وكأنه مثالي الابعاد .

ويوم تصبح آسيا بلداً واحداً يمتد من هنا حتى «كمشاتكا» ، كيف يعود في ذرعنا ان نفتديها بالنفس ؟ فالذين قضوا بالأمس من اجل الامبراطورية العثمانية ، او النمسوية الهنغارية ، انما تركوا لحفدائهم سؤالاً يسألونه اليوم ، تُرى من اجل ماذا جاد أسلافنا بالنفس ؟

كما ان قومية موريس بارس ، مثلاً ، وهي القومية الصادقة المؤثرة التي تختفق حباً لمسقط رأسه « اللورين » ، قد تبدو في ايامنا هذه مفرطة في غلوائها واقل صوابية منها بالأمس .

* * *

الحضور اللبناني انما نكتشفه اولاً في القلب .

فالغريب الذي عاش في هذه البلاد تراه بدافع من حبه لها يودّ لو يزورها من جديد . قليلة هي الشطآن ، قليلة هي الوجوه التي تستثير حباً كهذا الحب. فكأن ذا للمسافر دليل في السماء . وبينا نحن نتبرم بما نتخبط فيه سياسياً من فوضى ، نرى الغريب يغبطنا على ما أوتيناه من مزيد الحلاوة والائتلاق . لا شك ان هناك بلداناً تنعم بما ينعم به لبنان من فتون . لكن محاسنها ليست كمحاسنه . وفي شهادة الزائر العابر ، مهما كان نصيبها من الفطرة ، شيء من القول الفصل . فهي تنمّ على سعادة الكيان .

وثمة عندنا للعيش رغادة لا تبرح الخاطر مع البعد ، بل تعطر الذكرى وتتعهدها . وثمة شيء من نشوة الحس في ما يبثه المشهد اللبناني من تسامٍ روحي . وبينما الفنون والعلوم عند الآخرين ، هي التي تحرز الاعجاب ، فإن ما يحرزه ههنا طبيعة صوفية متقشفة ، ونبت برّي ، أو عري للتربة مثير ، يحمل في ذاته شيئاً من أنسنة . اما صخورنا الناصعة الصلدة فهي نفسها كالجسد الخفّاق. «الصيف ، يا صخرةً من نسيمٍ نقيّ» ، قال ڤاليري. ففي أي بلاد يصحّ هذا القول اكثر ممّا يصح في بلادنا ؟

وللبنان حضور عاطفي يمكننا الكلام عنه ، تماماً كما كان موريس بارس يتكلم عن مشهد «اللورين» ، ولكن برؤى ارحب وافق يختلف مداه. هذا الحضور العاطفي هو من صميم موضوعي ، العشيّة ، واليه سنعود قبلما نفترق. بيد ان لهذا الحضور وجوهاً اخرى تدعوني وتلحّ علي . أبدون اتضاع اقول ، مع مؤلف الامثال ، إن مسرحنا هو الكون بأسره ؟ يجوز . لكن مرادي بذلك ان انوّه بأن لبنان ، وحده في العالم العربي ، تشدّه الى جميع انحاء اليابسة والبحار هكذا اواصر شخصية ، بل حياتية قلْ ، فتراه بهذا النحو او بذاك حاضراً منذ الابد تحت كل سماء . وهذا الحضور العالمي ، هذا الحضور الذي منه يحيا ، اذا شئت ، هو بالنسبة اليه ظاهرة متأصّلة او مسألة طبيعية . امّا بالنسبة الى العالم العربي — وكثيراً ما اسهم لبنان منذ قرن في انتزاعه من وحدته — فهو منّة السماء . فلولا لبنان لقلّ تمثيل الدول العربية في العالم خلا تمثيلها الدبلوماسي .

هنا تحضرني بعض عبارات لأرنولد توينبي، فهي جد غالية، في ما تشهده على لبنان، على شخصيته ومواهبه. وهي تستخلص افضل استخلاص صلة الحاضر بالماضي، وتبيّن في لبنانيّ اليوم حفيد الفينيقيين ووريثهم المباشر. ينمّ على ذلك، كالهويّة، خلقه ومؤهلاته ونهجه واعماله:

«قيّض لجبليّي لبنان، في العصور الحديثة، ان يجاروا المآثر التاريخية التي أُثرت عن اهل صور وارواد، فسعوا للرزق في ديار الغربة، ووجدوا سبل عيشهم في البيع والشرى، بعيداً وتحت كل سماء».

الاقتصاد اللبناني كلّه يكمن، هنا، في أسطر المؤرخ الانكليزي الكبير.

«ويبدو، في ضوء السوابق المحلّية، ان الذي افضى باللبنانيين الى مجاراة اسلافهم الفينيقيين انما هو القحط الذي مني به جبلهم. بينما نرى ان طيبة جبال العلويين، في الشمال، قد عوّدت النصيريين عيشاً متراخياً تراخي عيش الفلسطينيين في الجنوب». وهذا ما يعود بنا، كما تلاحظون، الى حافز الإكراه.

ولنسمع توينبي مقارناً بين الفلسطينيين والفينيقيين: «فيما كان الفلسطينيون يرعون ويرتمّون ارتمام الخراف في ساحل فلسطين ويتوغلون حذرين نحو الداخل، بحثاً عن كلأ جديد، كان الفينيقيون يتخطون أفقهم البحري، المقتصر حتى ذاك على حدود التجارة الساحلية بين بيبلوس ودلتا النيل، فيمخرون

عباب اليمّ وينشئون للحضارة السريانية (والسريانية تطلق مبدئياً، كما تعرفون، على اللغة الآرامية) وطناً ثانياً في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وما وراءه من شطوط المحيط».

المصير اللبناني كلّه: سياستنا، صناعتنا، تجارتنا، سياستنا النقدية والمالية، كلها تكمن في مقارنة توينبي هذه.

ومن هذه المقارنة أراني أمتشق محوراً لموضوعي. لأن الحضور اللبناني الحق هو هنا. فابن هذي البلاد إن يهجرها دونما تردد فلفرط ما تشغفه التجارة والأسفار. لكنه اذ يهون عليه هجرها، كما لا يهون الهجر على احد سواه، لا يفتأ في الحل والترحال يتأوّه ويحنّ الى قريته والى ارض له جحداء. هذه حاله منذ أربعة أو خمسة آلاف عام، أي منذ اتجه هذا الساحل بنشاطه الى البحر وما وراءه من بلدان، ومنذ امسى تكاثف السكان في هذه البلاد منوطاً بخصب البحار.

فمن الحضور اللبناني في الغربة (ومن حضور الغريب في لبنان بلا شك) يستمدّ هذا البلد الخالي من المناجم والموارد الاولية وسائل عيش رحبة، ويستمدها كذلك من سعي في البعيد لا يكلّ، ومن ذكاء مرن وحدّة فؤاد، ومن أهلية للسفر وخفة في الانتقال. الى الصين يمضي اللبناني دون تردد، اذا ما دعاه اليها داعي العمل، حتى ولو كانت الصين صيناً معادية. هنا لن يفوتني أن استقي حجتي من «دائرة المعارف البريطانية». فالاستشهادات الانكليزية المصدر تبدو وكأنها القول الفصل.

فضلًا عن انها توضح لماذا وكم يخلق بالانـكليز ان يفهمونا اكثر من سائر الغربيين : أليس ما يفعلونه هم ، على نطاق أوسع بكثير ، وبالرغم مما قاسوا ويقاسون من دهرهم ، أليس يشابه ما نفعله نحن من زمان بعيد ؟

« ... كان الفينيقيون بوجه أخص أمة من أهل اليم ، وكانوا يتحلّون بالشجاعة والصبر . ولقد تجشموا الأخطار في مناطق لم يجرؤ سواهم على ارتيـادها . وكتموا ، لفرط حرصهم على امتيازهم ، اسرار دروبهم التجارية واكتشافاتهم ومعرفتهم لمجاري التيارات والريح » .

(ولم تدعَ نجمة القطب عبثاً بالنجمة الفينيقية) .

وتقول الموسوعة البريطانية في موضع آخر : « التجار الفينيقيون وحدهم استطاعوا ان يحافظوا على تجارة رابحة ، في أزمنة الفوضى، ايام السلالتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين (٨٢٥ - ٦٥٠ ق. م.) بينما استبدّ الخوف بالتجار الأُخر فولّوا متوارين » .

فلكـي نأبى على لبنانيّي عصرنا ميلاً الى الترحال لا مثيل له، ينبغي محو الماضي برمّته ، بل ينبغي ان نتخيّل سواحلنا التي نشّأت ذلك العنصر الجوّال قد فقدت مزاياها ورياحها الدروج. وانه لمن الحمق ان ندّعي حصر هذا البلد وهذا الشعب بين جدُر الاقتصاد العصري ، تلك الجدر المتداعية على كل حال . ان اكثر اللبنانيين موهبة وأشدّهم مراساً يكسبون عيشهم بعيداً عن

ارضهم ، او بفضل خـدمات تـكاد تكون غريبـة عن إيراد أرضهم . فهؤلاء حضورهم عالمي (مثلما هي خدماتهم) والحكمة تقضي باحترام نمط عيشهم والعمل على تيسير سبله ، فهو النمط الذي عاد عليهم بالمكانة والنفوذ في التجارة عبر القارات .

نمط العيش هذا الذي يبرّر حب المجازفة ويشهد بأن الشجاعة تكافىء ، فات الأوان على اعتباره حافلاً بالأخطار . فالذين لم يدركوا بعد أن لبنان اذا هو قصر عيشه على الزيتون والجبن ، وعلى الزُبن الذين يؤمونه من دنيّ جواره ليموتنّ سياسياً واجتماعياً، هؤلاء لم يفقهوا شيئاً من لبنان . انهم يهيمون في نظريات ما أبعدها عن نفسية هذا الشعب وتقاليده، أو لعلهم سجناء فكرة سياسية إن هي سيقت الى قصدها شكّلت خطراً حتى على ذاتية لبنان .

« فهل يعود الفـرّاش الى الفيالج ؟» . كذلك نحن . فبحجّة اخضاعنا لقواعد كلاسيكية مزعومة ، يعمد بعض الجلامد من اصحاب النظريات الى اعتساف مصيرنا، مجازفين بوجودنا بالذات . تباً للبنان — يقولون — وواحد من ناموسهم الاقتصادي لا يُمسّ !

ثم ان علم الاقتصاد السياسي ما زال على اشيـاء من النسبية واللّبس . فينبغي تفسيره كما تفسر نبوّات العرّافة . ولا يغيبن عن بال اللبنانيين ان الاقتصاد السياسي ، بالنسبة الينـا ، لأشبه بألسنة « ايزوب » . فهو يشتمل على الأفضل والأسوإ . وبه يمكن أن نحيا أو أن نموت . وكل شيء رهن بكيفية استخدامنا لمفترضاته وتجاربه ومحتملاته . فاذا اعتبرنا شعباً فذّاً ، شعباً

يخرج حقاً عن نطاق التصنيف ، استطعنا ان نتوخّى بالتجلّة نصائحه ومقترحاته . اما اذا ادّعى توجيهنا على حساب تهديمات خرقاء ، مثلما تقام واجهات الشارع ، لنناهضنّه اذّاك . فثمة مبدأ أبديّ ينير المطارحة : «في الحرف موت وفي الروح حياة».

لا غِنية للتشريع اللبناني ، والسياسة اللبنانية ، عن أن يأخذا بعين الاعتبار عاملاً اساسياً ومتأصلاً هو النشاط اللبناني في الخارج ومع الخارج . هذا هو سرّ ازدهارنا عبر عشرات القرون . فاذا نحن أسأنا فهم الغير وانصافهم ، فلا بدّ من أن يأتي يوم تساء فيه معاملتنا . واذا نحن أقدمنا ، باسم هذا المذهب الاقتصادي أو ذاك ، باسم هذه العقائدية أو تلك ، على تشويش الموارد المتعددة الوجوه ، الموارد اللامعدودة التي يستمدّها لبنان من الجهات الاربع ، ومن مختلف الاصقاع ، لأفضى مصير هذه الموارد الى النضوب . ان الحضور اللبناني في الخارج يحتّم على اللبنانيين المقيمين ، كما على الذين يطلّبون الرزق وراء البحار ، معرفة اللغات والعادات ووسائل النقل وشبكات الترانزيت ونوعية الموانىء وتجهيزات الاسواق ونفقات التحميل والتفريغ ، وكلفة السفرة على مدارها لكل ما يمخر البحار أو الاجواء من بضائع أو تجّار على السواء . وهذا ما يفترض الكثير من الأسفار ، وما يحتّم منها عدداً جمّاً ، الى ما لا نهاية .

امّا القاعدة التي ينبغي استخلاصها فهي ان علينا ان نستقبل الغريب بمثل ما يستقبلنا به ، أو بمثل ما نودّ ان يستقبلنا به من رحابة وأخوّة : « قريبك مثل نفسك » . ان كراهية الاجنبي ،

في لبنان ، تسوق لبنان الى الموت البطيء . انها نوع من الانتحار .

مجموعة حضارات متوائمة

في هذه المرحلة من حديثي سأعود الى التصميم الذي اعتمدته منذ حوالي سنتين ، في محاضرة عنوانها : « لبنان في العالم » ، ألقيتها من على منبر « الندوة اللبنانية » ، في هذه القاعة . لن اعيد على مسامعكم العبارات نفسها ، ولا الموضوع ، مع اننا حين نتوخّى الحقائق اللبنانية في صميمها نلقى ذاتنا ، من حيث لا نريد ، امام الأفكار والالفاظ والصوَر نفسها .

سأحدثكم إذن حديثاً مجملاً ، ودون ان أدّعي سعة المعرفة للتاريخ . سأحدثكم عمّا يمثل لنا حضورنا في آن واحد ، في حضارات العالم العربي والمتوسطي والانكلوسكسوني ، تلك الحضارات التي تعيش معنا على مؤالفة .

لن أحدثكم هذه المرة عن اسرائيل ، لئلا ينبغي الحديث عن غياب لا عن حضور . فما دامت الامم المتحدة لا تفرض ، بفعل وجودها عينه ، حدوداً وحواجز لمدّعيات اسرائيل ومطامعها ، فاننا سنمسي نحن والعرب أجمعين غائبين عن هذا المصمّم التوسّعي المطاط ، هذا المصمّم المشبوه الذي يهدّد الكثير من القيم الروحية والبشرية .

ان الحضارة العربية (وقد يقال بشيء من التفريق : الحضارات العربية ، كما لو كنا نقول الحضارات المتوسطية والأنكلوسكسونية ،

اذ كثيراً ما تتبدّل الأمور بين اليونان واسبانيا ، بين سوريا ومراكش ، بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة) ،ان الحضارة العربية هي حضارتنا الى حد بعيد . لكن الحياة في بيروت ، وحتى في دمشق ، هي غيرها في الرياض ، أو في جدّه ، أو في صنعاء اليمن . امّا البلاد التي تمثل الحضارة العربية الأصيلة أفضل تمثيل فهي الجزيرة العربية . وهذا ما يثبت الى حد اليقين أن حضارة بينيّة قد نشأت في كبريات العواصم العربية ، حضارة نتبيّنها في الملبس ، في المسكن ، في الأخلاق ، في التعليم ، في المحادثة والعادات . ولا شيء يظهّرها ، الى جانب اللباس المدني عند العامة ، مثل لباس السهرة عند الخُصّان : « ياقة سوداء أو ياقة بيضاء ... ». لا شك ان الاتراك نجحوا في ان يكونوا قدوة باهرة .

امّا بعد فالحضارة العربية تدّعينا ونحن ندّعيها كحضارة أم . ندّعيها ليس اكثر ممّا ندّعي الحضارة المتوسطية والانكلوسكسونية . وقليل من التبصر في هذا المجال يجلو لنا لبنان في حقيقته التاريخية . فالحضارات المتوسطيّة التي تقدّمت حضارة العرب على شاطئنا ، وهي اليونانية والرومانية والبيزنطية، ومن بعد العرب حضارات القرون الوسطى والنهضة وحضارة أوروبا في العصور الحديثة ، كل هذه ما زالت معالمها في شرائعنا ، في طقوسنا ، في عاداتنا ، وفي ما لدينا من طرائق تعبير وحياة . فكم تعبيرٍ في العامية اللبنانية يتحدّر من اللغة الطليانية او الفرنسية ، وعبرهما من اللاتينية او اليونانية .

من الواضح حقاً ان الحضارات العربية والغربية قد تفاعلت ، وبالأخص في لبنان . وهذه الظاهرة تبدو كذلك في سوريا ومصر والعراق والاردن ، لكنها متفاوتة الدرجات . امّا في لبنان فقد كانت الأمور اكثر تناغماً ، لأسباب جغرافية وتاريخية معلومة . وهذا طبيعي ، وفي إطار النظام . وما من احد ينكر على لبنان صفته « كصلِة وصل بين الشرق والغرب». فهذه الصيغة الصحيحة ، الشائعة ، باتت أداة تعريف بلبنان .

ممّا يؤثر عن الانكليز ، ممّن هم على شاكلة لورنس، أنهم كانوا لا يكادون ينزلون القاهرة ، قادمين من لندن ، حتى يحلو لهم لبس العباءة وانتعال الخفّ البدوي. ممّا كان للعرب دوماً مدعاة تسلية . امّا في لبنان فليس الأمر بوارد .

فاللبناني ينزل بارتياح في الوسط العربي ، كما في الوسطين المتوسطي والانكلوسكسوني على السواء . وانه كما اخال لينزل مرتاحاً في كوريا وفي اليابان وتحت كل سماء . لكنّ ما لا مرية فيه ان البحر المتوسط هو مناخنا الحيوي وبحرتنا، نحن متوسطيّي الشرق ، كما هو بحرة متوسطيّي الغرب والشمال والجنوب. عندي بستانيّ من دروز صوفر ، اخوه يعيش ميسوراً في « بالما » من اعمال الكناري ، منذ عشرين عاماً واكثر . انه يغرس الموز وينهج نهج اسباني من اهل الجزيرة . تُرى اية ريح دبور ساقت هذا القرويّ الفلاح الى جزر الكناري ؟ لا أدري . كل ما أدريه ان ثمة من القرية المجاورة مَن يتجهون الى « جمايكا » والى « سان دومنغو » ، وثمة من قرية أبعد مَن يتجهون الى الولايات

المتحدة وكندا . لا ادّعي القول بأن اولئك الفلاحين المهاجرين يبلغون مرهفات الحضارة التي يعتنقون. لكنّهم يتكيّفون بفعل قابلية للتمثّل لا تضاهى . السوريون يهاجرون هم ايضاً ، ولكن بنسبة أقل . انهم يهاجرون على قدر ما يتملّك البحر المتوسط قلوبهم ، وعلى قدر ما يغرز في دمهم من رواسب سلافات متعدّدة الوجوه .

نحن حاضرون ، قلت ، في قلب الحضارة المتوسطية على اختلاف اشكالها ، وفي كل ما ينتسب اليها من بلدان . وهذا ما يجعل تلك الحضارة وكأنها ، عندنا ، في عقر دارها . انه حضور واجب ، ومتبادل . ولو لم يكن لنا ، هنا ، تعليم متوسطيّ كلاسيكي ، رحيب ، لكان الهواء أعوزنا دون ريب .

لست واثقاً ان اوساط الجامعة العربية تقدر هذه الأمور حق قدرها . انها من رأي غير واحد بينهم ، لكنها ليست ذاك الرأي المباح . وبعد ألا نرى اليوم ابناء الهند ، رغم تحرّرهم من ربقة الانكليز ، يعتمدون اللغة الانكليزية لغة تفاهم في ما بينهم ؟ لأن في الهند حوالي مئتي لهجة كما تعلمون .

ليست اللغات بأهمية الأفكار ولا مثلها جوهرية . كذلك المعرفة ، فهي أولى مما يعبّر عنها . وكذلك قابلية الفهم ، فهي أولى من حروف الهجاء .

ونحن في لبنان ، كُتب لنا ان نكون متعدّدي اللغات ، كما نحن متعدّدو الطبائع . قد نعزّز احدى هذه اللغات اكثر من

سواها ، صحيح ، بيد ان حاجتنا الى الواحدة لا تقلّ عن حاجتنا الى الأخرى (او الى الأخريات) . فلولا اللغات — كما سبق لي أن كتبت يوماً — لأمسينا في الشرق الأدنى كمن صمّت آذانهم ريثما يخرسون . ومن حظنا أنّ تعلّم اللغات ميسور عندنا للجميع . ثم ان اللغة الاسبانية التي يتكلمها درزيّنا في بالما ، إن لم تكن كلغة سرڤنتس وكالديرون ، فإنما هي الى ذلك عنصر أساسي من عناصر راسمال هذا الرجل وسط ما يتعهّده من غرائس الموز .

ان للغات في لبنان ، وفي كل مكان ، ميزة الوسيلة الكبرى لتحقيق فعل حضور عالمي . وكما ان اللغة الصينية باتت لا تجدي نفعاً خارج الصين ، كذلك العربية ، فلا بدّ معها من اعتماد الترجمان منذ المطار . وهذا ما ينبغي ترداده على سمع بعض المنفّذين .

بحيث ان الحضور اللبناني ، وحضور الشرق الأدنى كله ، في الحضارة المتوسطية يفترض أو يستدعي امتلاك ناصية لغة أو اكثر من اللغات السائدة في حوض المتوسط . ولا يسعنا في هذا المجال الا التنويه بسكان سويسرا . فقد اعتمدوا أربع لغات رسمية ، دون أن تكون لسويسرا لغة خاصة بها . وهم يفخرون بحضورهم ، حضوراً أصيلاً لا زيف فيه ، في ثلاثة من أهم الآداب الأوروبية . هذا ما يبغيه عصرنا ، بل هذا ما يفرضه ويقتضيه . ولا اخالنا نقدم على إهانة السويسريّين فنعتبرهم أقل وطنية من العرب .

وبعد ، فالأديب الكبير كبير بأية لغة كتب . فلماذا ترجمته

ولماذا خيانته، إن كان في الوسع قراءته في لغته ؟ والشاعر الفذّ ليلبثن شاعراً فذاً، مهما كان مقلع كلماته. وانه ليسعد الغربي ان يتمكن من قراءة المعري والمتنبي، وغيرهما من سادة الآداب العربية، في لغتهم، قدر ما يسعد اللبناني ان يقرأ دانته وشكسبير، باسكال وغوته، في الطليانية والانكليزية، في الفرنسية والالمانية. وليس في العالم أفضل استعداداً لذلك من بلادنا الصغيرة. فهي بطبيعتها، فكرياً ومادياً، واحدة من المناطق الحرة، بل من اكثرها شرعيّة في العالم.

ومما لا شكّ فيه ان الحضارة الانكلوسكسونية هي ايضاً من مناهلنا الروحية والزمنية، شأنها شأن الحضارة المتوسطية. فهذه وتلك وحضارة العرب معهما كفيلة بأن تضاعف هناءة الانسان وحظوظه. وها نحن ترانا نستطيع العيش في فرنسا، كما في ايطاليا واسبانيا واليونان، وترانا نستطيعه في انكلترا، كما في المانيا والولايات المتحدة، نستطيعه بوفور من الفكر والعاطفة لا ينتقص شيئاً من بحبوحة لبنان في قلبنا.

هذه الأهلية الروحية السامية لهي بالتأكيد وجه من وجوه الشعور الانساني المعاصر، الشعور الانساني الذي لا يقصر عنه الفهم. نحن نعرف أرج روما، ومجد باريس، واشراق أثينا، وروعة الدساكر الملكية في انكلترا والريف الانكليزي، وتلك الرومنطيقية العارمة في المانيا ونهر الرين. نعرف ذلك كله. ونعرف انه ينبغي مؤاصرة ذلك كيما يؤتى الفكر البشري حظ التسامي الى أعلى علّييه. ان في غربي البحر المتوسط، وفي غربي

الاطلسي، صروحاً للفكر عظمى وجامعات ذائعات الصيت، حيث المعرفة في بسط مداها تتشوّف الى الحقيقة في ما لها من بالغ النفوذ. فكيف نعاف ذلك كله وننعزل في قومية حانقة غيرى؟

يطيب لنا ان نرى للغة العربية منابر في شتى الجامعات. لكن يطيب لنا، حباً للعربي ولبنان، أن نرى علوم العالم وآدابه مزدهرة تحت سماء لبنان. فنحن هنا نطلّب الشعر الكونيّ في اطلاقه، وليس شعراً وحيد اللسان. نحن هنا نتقصّى المعرفة الشاملة، لا المعرفة المقتصرة على بلدان الجامعة العربية. ان حصر العرب في قمقم ضئيل ما هو الا ازدراء لمصيرهم وامكاناتهم. فلماذا يضيّق صدرهم وتقصّر لهم الأنفاس ؟ ولعل العربي يذكر أنه في جولة من جولاته نفذَ الى صميم الغرب بالذات. امّا ولم يبقَ لهذا الغرب من ثأر يأخذه، فقد حان للعربي أن يقف في مستوى حلمه.

وثمة أخيراً وسيلة معقولة لضمان استقلال الأمم، ألا وهي الاقتناع بضرورة اعتصام بعضها بالبعض الآخر.

وحده استقلال الفكر يبقى استقلالاً كاملاً؛ لأنه، على الصعيد الزمني، لا يرتهن بشيء.

وبعد، مثل هذه الخواطر، مع ما لعصرنا من وجوه سرعة، تضفي على الحضور اللبناني في الشرق الأدنى وحوض المتوسط والعالم العربي والحضارات الغربية مزيّة لوجدها. فاذا لم تبرز للبنان، من خلال حديثي هذا، شخصية له ورسالة، فإني لا

اكون قد بلغت مقصدي . لكنّ الحضور اللبناني ، عند ملتقى الدروب وحتى منتهاها ، لا اخاله الاّ متـألقاً في مسامعكم وأبصاركم على السواء .

ولن يغيب عن بالكم أن هذا البلد الصغير ، الجاثم على عتبة آسيا الغربية ، لا ندّ له في آسيا ولا في العالم . فهو في آن معاً حصيلة المنوّعات التاريخية والاجتماعية الكبرى ومؤتلفها . ولعلّ ما يجعل منه بلداً فرداً ، انه يحيا من تحرّره وتسامحه وحفاوته ومن دوام دعوته الى الترحال . كما ان ما يسبغ على اللبناني طابعه الفذّ ، انه يجلب ثرواته من اقاصي الأرض ، فلا ينزل الضرر بأحد من اللبنانيين البعاد ، ولا يستغلّ عرق مواطنيه . وليس اخيراً للاشتراكي أو لعالم الاجتماع أي مأخذ عليه . وليس في العالم ، على كل حال ، مسرف مثله ولا أسخى منه .

ولئن كان اللبنانيون ، بوجه عام ، يتخطّون في العيش وسائلهم المادّية ، فذلك حريّ بأن يثير الذعر في نفرٍ من حزناء الاقتصاديين . امّا نحن فـلا يقلقنا الأمر . لأنه ، على الصعيد الاجتماعي ، لأفضل بكثير من الائتلافات الجماعية . فضلاً عن انه يلازمنا منذ خمسة آلاف عام . على كلٍ ، لا نعتقد ان هذه البلاد تتجاوز في العيش وسائلها الفكرية . وليست الألمعية في الاعمال سوى جزء متمّم لراسمالها .

ناهيك بأن ما عمّره اللبنانيون ، وما يمتلكونه وما أنفقوه ، كلّه تأتّى من جهد بذلوه في البعيد ، اكثر ممّا تأتّى من ميراث

توارثوه . ومتى المرء لم يسأل بلاده سوى هذا النزر اليسير ، حرام أن يمسي في بلاده موضوع حسد دنيء . فكم يخلق بالادارة الضرائبية في لبنان ، وبأساتذتنا في الحق المالي ، أن لا يسهوا عن هذا الاعتبار النفسي البديهي .

ان المـال المجنيّ في جزر الكناري وجمايكا وسان دومنغو ليلبثنّ في تلك الجزر أو يساق الى مكان آخر ، اذا نحن عنّ لنا ان ننغّص عليه وجوده بيننا . فالجهـد المبذول في البعيد هو الذي عمّر القرية اللبنانية ، وعمّر المدن بالتالي ، وجعل من قرانا في الجبل شيئاً مختلفاً عن سائر قرى الشرق الأدنى .

ختام

لعلّ ما يكوّن الحضور اللبناني ، بالنسبة للبنانيين ، لعلّما هو غيابات لا عدّ لها . وهذا لعمري من خصائص الشعوب التي آلفت سبل البحر (والجو حالياً) . امّا القراءات التي أفادتني في طوافي معكم فقد أوتيتها في أغلبها عرَضاً . وكان أن لقيت فيها ، هنا وهناك ، شيئاً يحمل حفظه وايقافكم عليه . ويقيني انها لم تكن قراءات لغوًى ، بل تختفق بخفقة الماضي وبشيءٍ ما أشبهه بالشعر . وهل من تاريخ حيّ بلا شعر ؟ واذا لم يكن من شأن التاريخ تظهير شخصية الشعوب والرجالات ، فهو تاريخ لا طائل تحته . لذا كان حسبي ، هـذي العشية ، وحسبكم شخصية لبنان .

شخصية مثيرة بين الشخصيّات ، لأنها عبر عثرات التجارة وطوارىء المبادلات ، وعبر الصراع الماديّ في سبيل العيش ، اتّسمت ابداً بميسم الصراع في سبيل الروح . ولئن ترى اللبناني اليوم يدأب في كسب عيشه حيث يستطيع ، فإنّما فعل ذلك في الأصل ذوداً عن ايمان . ولم تكن جباله يوماً الا ملاذاً للروح . والأقليات الطائفية التي تنزله اليوم أناطت ، مذ نزلته ، شؤون الزمنيات بالروحانيات .هذه كانت حالها كلها دون استثناء .

هذه الاقليات أنِست في أعالي لبنان ملجأ لها من الجور ومعقلاً للحريات . لكن الرغيف أعوزها ، فانطلقت مع الرياح الأربع بحثاً عن الرغيف .

سرّ لبنان يكمن في ان الجبل قصدَه تدريجاً اناس جزعون ، مطارَدون ، عافوا وراءهم كل ما يملكون ، رجاةَ أن ينجوا بالنفس والجسد . فما استقرّ بهم المقام حتى راحوا في اطّلاب الرزق خلف البحار ، مواصلين ذلك التقليد العريق .

كنت احدثكم ، في ما خصّني ، عن قراءات متقشفة . لكن هذه القراءات لم تكن كلها كذلك . انا ممّن يؤمنون بأن الشعر افضل مدخل ، ليس للآداب وحسب ، بل للعلوم . فهو يثير في النفس حالة تفسح في مجال الابتكار والتكهّن . والشعر ، في أصفى معانيه ، هو ذاك المختصر المتناغم في كل شيء .

وكنت احدثكم عن حضور للبنان شعوريّ . فها هو ذا الحضور أشد ثباتا من حجج السياسة والاقتصاد جمعاء . وفيما نرى اللبنانيين يجوبون العالم ، ويتزوجون في الغربة ويزوجون

ابناءهم ، نرى بلادنا الصغيرة تتميّز ابداً عما يحيط بها . انها تتحدّى الزمن وتتمثّل كل شيء .

وتتوالى الاجيال وتدول الممالك ، وبلادنا لا تلبث دعوة حيّة الى هناءة العيش ، شرط ألّا يأتي العقائديون ودعاة الاصلاح فيفسدوا أخيراً هذه الهناءة .

ومن جملة ما وقعت عليه في قراءاتي أسطر بضعة قلّما يُنتظر ان تُحمل على محمل المستند اللبناني ، لكنّها مؤثرة في بساطتها الى حدّ اني شئت إيقافكم عليها ختاماً للحديث . انها بكلمتين تدحض قول القائلين باقتصاد لبناني مغلق ، كما تدحض قول القائلين بسياسة لا مطلاّت لها على اليمّ . انه كتاب لجان لويس فودوايه ، عنوانه : « جمالات البروڤانس » . وسواء أينطق فيه صاحبه بالشعر ام بالنثر ، فإنما هو ينطق بوقع الشعر العميق ونبرته . فلنسمعه يتحدث عن نشاط الفينيقيين ، في فصل عنوانه : « ثلاثة ايام في آرل » :

« خاضوا جميع البحار المعروفة والمجهولة . وأقاموا خوارق الاسواق في المواضع المناسبة . وأقبلوا وأدبروا وما وَنوا يقبلون ويدبرون . ليسوا مستعمرين ، بل تجار يطوفون البحار عملاء ومستوردين ، مثلما يطوف الباعة الجوّالة في اريافنا . ولئن ظلّ السلتيّون وحدهم سادة آرل ، فإن الفينيقيين قد جعلوا منها مركزاً لأعمالهم . كانوا مسالمين ، ليني العريكة ، مكتتمين ...

... في اقاصي المعمور كانت لصور موارد رزقها » .

... « في اقاصي المعمور كانت لصور موارد رزقها ». جملة صغيرة كبيرة ، يحسن بنا ان نقف معاً عندها. فهي تحدّد لبنان تحديداً رائعاً . ان الشاعر قد رأى في ومضة عين اكثر مما رآه العلّامة الاقتصادي . واشار بكلمة الى مواقع للذهب قصيّة ، خافية . وبيّن الوضع اللبناني ، ولم يحفل بانتفاء الصادرات . فتحقق ان بائع الفكر إنما هو بائع كسواه ، بل انه بائع اكثر استئهالاً من سواه .

اما نحن فنقول بدورنا ، ولكن دون ان تبرحنا ارادة العمل على استخصاب ارضنا الصلدة حتى نصيّرها أحلى جنّة على الارض ، نقول بدورنا :

« في اقاصي المعمور ما زالت للبنان موارد رزقه » .

٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٥٣